روايات الهلال للأولاد والبنات

سلسلة تاريخ الإسلام

جرجي زيدان



عذراء قريش

قبل أن تقرأ..

«جرجى زيدان» مفكر لبنانى المولد مصرى الإقامة عروبى الهوى.. إسلامى الثقافة.. عاش ثلاثة وخمسين عاماً فقط (١٨٦١ - ١٩١٤)، قدم خلالها للفكر العربى أكثر من خمسين كتابا فى مجالات الفكر كافة.. يأتى فى مقدمتها «روايات تاريخ الإسلام» (٢٣ رواية)، والتى استطاع من خلالها أن يقدم التاريخ الإسلامى بسهولة ويسر، كما اتسمت رؤيته بالإنصاف والعدل، وهو الكاتب المسيحى المستنير الذى استطاع أن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية فى تاريخ الإسلام، وحوّل هذا التاريخ من مادة صماء إلى حكايات ووقائع وشخصيات شديدة الحيوية، مما جعل هذه الروايات تحقق نجاحات كبيرة وإقبالاً شديداً بين مختلف فئات المجتمع داخل مصر وخارجها عند نشرها مسلسلة على صفحات مجلة «الهلال» بداية من السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.. ولكل ذلك فنحن نعيد تقديم هذه الروايات للأجيال الجديدة «بشكل جديد» لما لها من أهمية فكرية وتاريخية، ولما تحمله بين طياتها من إجابات على كثير من علامات الاستفهام التى تشغلنا فى الوقت الحالى...

رئيس التحرير

المقدمة

موضوع هذه الرواية : الفتنة الكبرى فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، تلك الفتنة التى وقعت خارجة عن سياق الإسلام وخارجة عما درج عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلاق .

ولأن الفتنة - كل فتنة - يختلف فيها الأطراف ، وتختلط فيها أوراق الحق والباطل ؛ وتغشى فيها الرؤية الصحيحة على الجميع . فيتمسك كل طرف بما يرى أنه الحق ولايرى غيره فهو لايرى بعض الحق الذى مع أخيه ولايرى بعض الباطل أو الخطأ الذى هو نفسه واقع فيه ، من ثم تعمى الرؤية على الجميع .

والفتنة الكبرى تعد أعسر امتحان يواجهه من يتصدى لها ، فهى مشهد معقد مكون من مواقف ملتبسة لرجال محترمين على مستوى الإنسانية فضلا عما كانوا عليه من مستوى الدين والأخلاق .

فإن الذين يتصدون لهذه الفتن لهم طرق شتى فى معالجتها .

الطريقة الأولى الأعمال العلمية الفنية المتخصصة فيحللون الروايات ويحققونها عن طريق فحص الرواة الذين نقلوا هذه الأخبار وفحص المضمون لكل رواية ويجتهدوا فى مقابلة الروايات بعضها ببعض حتى يصلوا إلى مضمون منسجم متماسك من عدة روايات صحيحة متكاملة يكمل بعضها بعضاً ويستنتجوا نتيجة من هذا المضمون المنسجم والمتكامل .

وهذه عملية علمية إلا أنها صعبة ومعقدة تستلزم الحرص غاية الحرص والخبرة غاية الخبرة لأن مزالقها لا تؤمن إلا قليلا ممن أوتوا الحيدة والإنصاف والكفاءة العلمية العالية .

الطريقة الثانية أن يعتمد الباحث على عرض الروايات ما

صح منها وما لم يصح دون أن يتخذ موقفا محددا أو يستخلص نتيجة معينة وإنما يترك للقارىء التحقق من صحة الروايات واستخلاص النتيجة التى يراها ، وهذه الطريقة هى التى لجأ إليها كثير من المؤرخين المسلمين خاصة الطبرى فهو يورد الروايات ويسندها إلى رواتها بأمانة لكنه يترك للباحث تحقيق هذه الروايات وفحصها ، وحسبه أنه قدم المادة العلمية التى يشتغل عليها الباحثون المحققون .

الطريقة الثالثة طريقة المغرضين الذين يختارون من الروايات خطا واحدا يؤدى إلى اثبات ما يريدون سلبا أو إيجابا فهم يميلون مع الروايات التى تتفق مع غرضهم ويختارونها ثم يجمعونها لتؤلف سياقا تاريخيا أو نفسيا أو اجتماعيا يقصدونه مسبقا .

الطريقة الرابعة هى طريقة الأعمال الفنية كالرواية أو القصة أو المسرحية أو التمثيلية ، وفى هذه الطريقة يتخفف الروائيون أو القصاص من عهدة تحمل المسئولية مباشرة عن الموقف الذى يستنطقونه على لسان الأبطال الذين يختارونهم اعتمادا على أنه لايقدم عملا علميا ، بل عملا فنيا ، فلايكون الهدف فى العمل الفنى هو التحقيق العلمى بقدر ما يكون المتعة الفنية المستخلصة من عرض الأحداث فى سياق معين وربما كان آخر نموذج لهذه الطريقة ما كان يقوم به الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى فى أعماله الفنية الأخيرة .

إلا أنه يبدو لى أن الأستاذ جرجى زيدان عمد إلى طريقة جديدة فى رواياته عن تاريخ الإسلام بشكل عام وفى هذه الرواية «عذراء قريش» بشكل خاص .

فبالرغم من أنه اختار الطريقة الروائية إلا أنه لم يتحل من العهدة العلمية فنراه اعتمد فى رواياته على المراجع التاريخية المعهودة فى تراثنا لكنه لم يستهدف النيل من أصحاب الأحداث التى جرت فى خضم هذه الفتنة والتزم الحياد بينها ، ولم ينحز إلى طرف فيها رغم أنه جعل قارئه

يعيش فى قلب الأحداث التى مرت فى البيئة بمدنها وشوارعها وخيامها بل فى بيوت أصحابها أنفسهم وأحيانا يأخذ القارىء إلى داخل النفوس ذاتها وأغراضها مع أن التسلل إلى النفوس واستكناه أغراضها عمل صعب وهو محفوف بالمزالق والمخاطر .

فهو فى هذه الرواية ينقلك إلى المدينة المنورة بشوارعها المزدحمة بالثوار على عثمان الذين جاءوا من مصر والشام والعراق ويعرفك بهم وبأسمائهم ويدخل بك إلى دار أمير المؤمنين عثمان نفسه رضى الله عنه وإلى غرفته الخاصة حيث يقرأ القرآن الكريم ومعه السيدة الجليلة نائلة زوجه وهى تدافع عنه وتتلقى الضربات بيدها الكريمة وقد بعث الإمام على كرم الله وجهه ولديه الحسن والحسين يدافعان عنه ويعرض دور مروان بن الحكم الذى كان يلقبه الناس «طريد رسول الله» وما يفعله من التوقيع بختم الخليفة على مكاتبات تثير ثائرة الناقمين على الخليفة ، مما أدى فى السياق التاريخى إلى قتل الخليفة رضى الله عنه وقطع يد السيدة نائلة زوجة وهى تتلقى بيدها سيوف الاعداء عن الخليفة الشهيد .

وعرض جرجى زيدان تسلسل الأحداث بعد مقتل عثمان رضى الله عنه وتولى الإمام على كرم الله وجهه الخلافة إلى بروز مشكلتين خطيرتين أدتا إلى موقعتين مؤسفتين ، المشكلة الأولى: تعيين على رضى الله عنه للولاة وفيهم والى الشام القديم معاوية رضى الله عنه ، وهو يتولى الشام منذ أواخر خلافة عمر رضى الله عنه وكل خلافة عثمان رضى الله عنه ، ونصح الناصحون وفيهم عبدالله بن عباس رضى الله عنه لعلى رضى الله عنه أن يترك الولاة الآن وخاصة معاوية .

المشكلة الثانية : القصاص من قتله عثمان ، وقد كانت مشكلة صعبة فالثوار عددهم كبير من أقاليم شتى وقد تفرقوا

بعد الحادث ، وأمرهم يقتضى التمهل وترتيب أوضاع الدولة بعد الفتنة فى نظر على بينما بدت فى نظر معاوية إجراء يجب أن يسبق كل الإجراءات والله أعلم بالنوايا .

ترتب على هاتين المشكلتين وقعتان .

الوقعة الأولى : وقعة الجمل حيث خرج طلحة والزبير رضى الله عنهما ، وخرجت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تريد الصلح فى البداية بين على رضى الله عنه من جهة وطلحة والزبير من جهة أخرى إلا أن الأمور خرجت من يد الجميع إلى الحرب بينهم ، وهزم طلحة والزبير (رضى الله عنهما) ، وقام على برد السيدة عائشة أم المؤمنين عزيزة مكرمة .

الوقعة الثانية : وقعة صفين . بين على ومعاوية (رضى الله عنهما) ودوران الدائرة على جيش معاوية وفيه عمرو بن العاص الذى ابتكر فكرة التحكيم (رفع المصاحف وتحكيم القرآن فى الخلاف) ورفض على رضى الله عنه فى البداية ثم خضوعه لرأى جماعة من جنده قالوا لا حكم إلا لله ، وقبوله التحكيم وما نتج عنه من خلاف لم ينته إلا عام ٤١ هـ حيث قتل الإمام على كرم الله وجهه بيد أحد الخوارج الذين قرروا قتل على ومعاوية وعمرو وأبى موسى الأشعرى (أطراف التحكيم) فلم ينفذوا أمرهم إلا في على ، ولما آلت الخلافة إلى الحسن بن على رضى الله عنه بايع معاوية رضى الله عنه ليجمع المسلمين ويحقن بتنازله الدماء .

لقد عرض جرجي زيدان لهذه الأحداث عرضا بدا فيه الحياد بقدر الإمكان لمن يتعرض لهذه الأحداث الشائكة الملتبسة – كما قلت .

وربما نتفق معه فى عرض الأحداث ، ونختلف معه أحيانا فى تحليل الأغراض الذاتية ودخائل النفوس وخلاف الصحابة فى الإمامة ، فقد كان كل منهم يراها من الجانب الذى تراءى له .

لقد دافع على - كرم الله وجهه - عن إمامة المسلمين، ووحدتهم السياسية والدينية قدر استطاعته وعثمان مازال هو الخليفة ، وبنفس الروح وبنفس المنطق دافع عن الإمامة والوحدة وهو نفسه الخليفة، فلم يكن يدافع عن نفسه بقدر ما كان يدافع عن وحدة أمة وكيان دولة ووحدة الدين الذى آمنت به الأمة وقامت عليه الدولة .

ومعاوية - رضى الله عنه - كان له رأى آخر ، حار فيه الأكثرون ، واختلف شأنهم فيه باختلاف النظر إلى رأيه فمنهم - قبل جرجى زيدان وبعده - من كان يرى الإخلاص فى معاوية لاستقرار الدولة بالقصاص من القتلة حتى لايجترىء المجترئون على الدولة ، ومنهم من رأى أن معاوية رآها غير ذلك فرصة للخلافة .

وكان شأن جرجى زيدان فى هذه الفتنة شأن المصادر التى نقل عنها من تراثنا .

ومع أنى قمت بالتعليق على بعض الروايات التى أوردها فى خضم هذه الفتنة ، بروايات مقابلة ، إلا أن جرجى زيدان كان كغيره من الكثيرين من المؤرخين المسلمين الذين وقفوا أمام هذه الروايات نفس موقفه .

فقد قمت بقراءة هذه الرواية ، وعلقت بالإشارة إلى بعض الروايات المقابلة فى بعض المواقف لتكمل الصورة التاريخية عن وقائع هذه الفترة وعن أصحابها الذين كانوا - وهم بشر - على أعلى طبقات الإنسانية . رغم خطأ الاجتهاد الذى لا يحرم صاحبه الأجر والثواب .

وليأتى ذلك العمل الباهر لجرجى زيدان فى حلة جديدة لأجيال جديدة تعينها على تحقيق الهوية ، والعودة إلى الذات.

د.عبد المعطى بيومى

قباء

«قباء» قرية على بعد ميلين من المدينة «يثرب» اشتهرت بعد الهجرة بنزول محمد نبي الإسلام فيها أثناء هجرته إلى المدينة ، فبنى فيها مسجداً هو أول مسجد بنى فى الإسلام، وكانت قباء فى خلافه عثمان ثالث الخلفاء الراشدين قد اشتهر أمرها على أثر انتشار الإسلام واتخاذ الخلفاء المدينة مقراً للخلافة.

وكان لذلك المسجد فى أواخر خلافة عثمان خادم عجوز اسمه عامر، يقضى نهاره فى حراسة الجامع ويقوم بتنظيفه فإذا فرغ من ذلك خرج مع أولاده لرعاية إبل أحد أغنياء المدينة.

ففى مساء يوم من أيام سنة ٣٥ للهجرة، خرج الشيخ لرعاية الإبل ، ولما حان الغروب أسرع بالرجوع فركب ناقته فطارت به وأولاده من ورائه يتبعونه وما كاد يشرف على قباء حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيول بجوار المسجد، ورأي ركبا معهم الجمال والأحمال. فلم يستغرب ذلك لأنه قد تعود أن يرى كثيراً من أمثاله كل عام.

على فراش الموت

وما أن اقترب من المسجد حتى تبين الوجوه، فإذا هم ركب معهم الخيل والجمال وبضعة رجال وفتاة، وقد تجمعوا جميعاً فى حنان حول هودج فيه مريض يحاولون إخراجه إلى مقعد فى خيمة نصبوها بالقرب منه. فتفرس الشيخ أولئك الناس، فعلم أنهم قادمون من الشام إلى المدينة، ونظر إلى كبيرهم فإذا هو كهل عليه لباس عرب الشام

وبجانبه شاب حسن الهندام عليه عباءة من القصب وسيفه مرصع وعلى مقربة منهما فتاة غضة الشباب أشرق وجهها صحة ونشاطا، على رأسها كوفية شدت بعقال وقد أرسلت أطرافها إلى ظهرها. فلما رآها الشيخ استرعت انتباهه بما آنسه فيها من اهتمام بأمر ذلك المريض وكانت ترشد رفقاءها فى كيفية حمله والعناية به أثناء نقله، فنزل الشيخ عن ناقته وصاح: «أهلا بوجوه العرب». وتقدم لمساعدتهم وتفرس فى المريض فإذا هو امرأة قد شارفت الأربعين، اشتد بها المرض. فعرض نفسه للخدمة فأشارت إليه الفتاة ألا يدنو من المريضة لأنهم يريدون حملها بأنفسهم.

اشتغل الرجال فى نقل المريضة وأكثرهم عناية بها الفتاة، واسمها (أسماء)، فكانت تعمل على راحة المريضة. ولا عجب فإن المريضة والدتها وأما الكهل فهو زوج السيدة المريضة واسمه (يزيد)، وكان قليل العناية بأمرها وأما الشاب فاسمه (مروان) وكان يبدو أنه معجب بنفسه لقرابته من الخليفة عثمان بن عفان.

عذراء قريش

فلما نقلوا المريضة إلى فراشها جلست «أسماء» إلى جانب رأسها، وأخذت تمسح العرق عن وجهها بمنديلها، والأم غائبة عن الوعى، وأسماء شاخصة ببصرها اليها والدموع ملء عينيها، فكانت تمسح دموعها بالمنديل خلسة ونظرها لايتحول عن وجه المريضة لحظة. وكان الليل قد أسدل نقابه، فجاءهم عامر بمصباح أدخلوه

الخيمة، والفتاة لايهمها إلا النظر إلى أمها لا تعبأ بوالدها ولا بذلك الشاب الذى يحاول أن يظفر بقلبها وهى تكره أن تراه. وكان قد طلبها لنفسه منذ كانوا فى الشام، فرضى الوالد ورفضت الوالدة وأبت الفتاة .. رضى الوالد طمعاً فى منصب يناله من الخليفة عثمان على يدى مروان، ولم يكن فيه حنان الوالد ولا عطفه، لأنه يعلم كما تعلم امرأته أن تلك الفتاة ليست ابنته. وكان يزيد كهلا أشمط الشعر قصيراً غائر العينين طماعاً سيىء الخلق يحب المال حباً جماً. وكان أهل الشام يعتقدون أن أسماء ابنته، مع أنها تختلف عنه، فقد كانت من الهيبة والجمال على جانب عظيم جمعت بين لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهم. وكانت فارعة القوام ملآنة الجسم قمحية اللون سوداء العينين .. فى نظرها حدة، طويلة الأهداب صغيرة الفم عظيمة الهيبة. واشتهرت بين أهل الشام بالخلق الحسن، فأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب ذلك منه كرماً. لأن حالها من الدنيا ينحط عن حاله كثيراً، فهى من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان.

وكان هذا الخليفة يؤثر ذوى قرابته من بنى أمية ويفتح لهم أبواب الرزق .. الأمر الذى انتهى بقيام المسلمين عليه حتى تحدثوا فى عزله، وكانت الفتنة المشهورة . كان مروان يتردد إلى منزل يزيد، وكلاهما من بنى أمية، فيحتفل يزيد به ويود لو أنه تزوج من ابنته فينال الحظوة لدى الخليفة ويظفر بمنصب رفيع. وفى ذات يوم حدثه مروان فى ذلك فأجابه إلى رغبته ،

وأكد أن الفتاة له لا محالة اعتماداً على تقاليد تلك الأيام فى أمر الزواج، فقد كان الرأى للأب فى كل أمر ..

حين خاطب زوجته فى الأمر ، أحس منها إعراضا وإباء، وأدركت الفتاة مابينهما من أجلها، فأظهرت نفورها من مروان لأنها كانت تهوى الشهامة وكرم الأخلاق ، فلم يقع مروان من نفسها موقع القبول، فتمكنت الوالدة من الرفض ويزيد يزداد إلحاحاً.

وخافت أن يلجأ إلى وسائل العنف فى تنفيذ مآربه فوقعت فى حيرة. ولشدة ماقاسته من المقاومة أصيبت بالحمى ووهنت قواها وخشيت أن تدركها المنية فطلبت إليهم أن يحملوها إلى المدينة، حتى تجيبهم إلى طلبهم هناك.. فعجبوا لقصدها . أما مروان فسر لذلك السفر، لأنه إذا نزل المدينة كان إلى جانب ابن عمه الخليفة عثمان.. فإذا عادت الوالدة إلى التردد هددها بغضبه . فكان ذلك السفر سبباً فى اشتداد المرض، وأسماء لاتعلم السر فى ذلك الانتقال . وخلت ذات يوم بوالدتها وعاتبتها على ما حملت نفسها من المشقة، فأسرت إليها إنما تنوى الالتجاء إلى على ابن أبى طالب لعله ينقذها من أيدى الظالمين، لما اشتهر به من غوث المظلومين ولما له من المكانة عند الخليفة وغيره من المسلمين. وما زال المرض يشتد بها يوما بعد يوم، وزوجها ومروان يتمنيان أن تقضى نحبها قبل الوصول إلى المدينة، فكانا يطيلان مدة السير ويقودان القافلة فى طرق طويلة.

سر ذاهب إلى القبر

وكانت تلك المريضة اسمها (مريم) فى نحو الأربعين من عمرها، بيضاء اللون ، رومانية الملامح، واسعة العينين زادهما الضعف جحوظاً وكانت أسماء تخشى أن تموت . فكانت تعمد إلى يدها فتجسها لتتثبت من حرارتها، فتحس العرق البارد وهو ينسكب من أناملها فترتعد فرائصها .. ومما زادها شقاء أن والدها مابرح منذ نزولهم هناك مختليا بمروان فى خيمته، لايدخل خيمة زوجته إلا نادراً، وإذا دخل مروان لايدنو من الفراش، ولكنه ينظر إلى أسماء ويبتسم وهى لاتستطيع الابتسام ولا تطيق النظر إليه وبعد بضع ساعات، حركت النائمة رأسها وفتحت عينيها ونظرت نحو أسماء فهبت الفتاة واقفة وكلها آذان لتتلقى أوامرها، وسألتها إذا كانت تحتاج إلى شىء .. فأشارت تطلب ماء، فأسرعت بالماء وأدنته من شفتيها فشربت منه قليلاً، فارتاح وجه أسماء وعاد إليها الأمل، وانحنت على جبينها وقبلته، وأمسكت يدها بلطف وقالت لها : «هل تريدين شيئاً يا أماه ؟» .

فأجابتها بصوت ضعيف : «لا أريد شيئاً غير سلامتك، ولكنى أرانى لاأستطيع الوصول إلى المدينة ولا أظننى أعيش إلى الغد فقد شعرت بدنو الأجل» .

قالت ذلك والدموع تتساقط من عينيها فلما سمعت أسماء كلامها ورأت دموعها اقشعر جسمها وخفق قلبها ولكنها تجلدت وتظاهرت بالابتسام قائلة : «لا سمح الله بسوء يصيبك يا أماه، فإنك ستصبحين فى خير فنركب معاً إلى المدينة بإذن الله» .

فتبسمت فى حزن وقالت : «لا يا ابنتى لا أرجو البقاء إلى الغد ولكن فى نفسى أمراً أود قضاءه قبل الوفاة».

قالت أسماء : «وما هو ذلك الأمر يا أماه» ؟.

قالت : «هو أن ألتقى بعلى بن أبى طالب فأخاطبه دقيقتين قبل الموت».

قالت : «غداً نلتقى فى المدينة فتخاطبيه».

قالت : «قلت لك إننى لا أرجو أن أرى صباح الغد يا أبنتى» .. فهمت أسماء بوالدتها لتقبلها، فأحست بدموع أمها تتساقط على عنقها. فنهضت وتظاهرت بالتجلد وقالت : «لا بأس عليك ياأماه فهل تطلبين علياً لتخاطبيه فى شأنى ؟» قالت : «نعم هو سر أكتمه أعواماً طوالاً، وقد آن لى أن أبوح به ، أحضروه إلى».

فنهضت أسماء إلى الخارج، فرأت والدها ومروان واقفين، فلما رأياها أسرعا نحوها وقالا : «كيف والدتك .. لعلها بخير ؟».

فأجابت : «إنها قد أفاقت وطلبت أن ترى عليا بن أبى طالب».

قال والدها : «وكيف يمكن أن تراه الآن وهو فى المدينة» ؟

قالت : «لقد طلبت استقدامه إليها بالحاح».

قال مروان: «استقدامه!.. ومن يستطيع ذلك» ؟

قالت : «أظنه لا يأبى المجىء إذا قيل له امرأة على فراش الموت تلتمس مقابلتك، وهو ممن اشتهر بكرم الخلق».

قال : «لا أنكر خلقه، ولكنه الآن فى شغل كبير من حال المسلمين واختلافهم على الخليفة».

قالت : «وأى خليفة» ؟

قال : «سمعت قبل خروجنا من الشام أن أهل الولايات ناقمون على عثمان لأنه يؤثر ذوى قرابته فيولى اقربائه ويعزل الذين ولاهم أسلافه، وبلغنى أن أهل مصر خرجوا قاصدين المدينة ليشكوا أمرهم إلى على لعله يتوسط فيما بينهم وبين عثمان . وكذلك أهل البصرة وأهل الكوفة، وأظنهم وصلوا المدينة الآن.. فإذا وصلوا كان على فى شغل لايسمح له بالخروج».

قالت وقد ملت الجدال : «إن والدتى تطلب عليا بإلحاح، فما علينا الآن إلا أن نبعث فى طلبه».

قال : «فلنبعث واحداً من رجالى وأذهب أنا فى أثره استعجله فى إنفاذ المهمة».. قال ذلك وأمر واحداً منهم فركب وأسرع نحو المدينة ، ثم ركب هو على أثره، فعادت مسرعة إلى الخيمة .. فإذا بوالدتها تحرك رأسها وترفع يدها كأنها تشير إليها أن تدنو منها ، فدنت وهمت بها فقبلتها وقالت :

«ماذا تريدين يا أماه» ؟

قالت الأم : «لقد نفد صبرى وخارت قواى. استقدموا عليا قبل أن تفوت الفرصة».

قالت أسماء : «ألا تبوحين لى بما تريدين أن تقوليه له ، ألم يحن الوقت لكى أعرف من هو والدى» ؟

قالت الأم : «ستعرفينه متى جاء على».

المدينة المنورة

وكانت قد ملت الانتظار مع ما تعلمه من غرض مروان، فخافت أن يكون ذهابه فى إثر الخادم سبباً فى ذلك التأخير والوقت

ثمين .. فعزمت على المسير بنفسها وهى لم تدخل المدينة قبل ذلك، فشدت الكوفية حول رأسها وتلثمت بها حتى لم يظهر منها إلا عيناها، وارتدت العباءة فأخفت رداءها النسائى، وركبت جوادها وأيقظت والدها وأوصته بأمها خيراً. ولم تخبر والدتها لئلا تمنعها من الذهاب، واتخذت أنوار المسجد النبوى وجهتها. وهمزت الجواد فجرى. دنت من سور المدينة واهتدت إلى بابها، فدخلت منه إلى أسواق ضيقة مزدحمة بالناس، فسألت رجلاً عن منزل على فدلها عليه.

فقالت أسماء : «لعل مولانا عليا فى المنزل ؟».

قال وقد اعتقد أنها رجل: «كلا إنه خرج عند الغروب إلى المسجد ولم يعد للآن، فهل تذهب معى لنبحث عنه هناك» ؟..

قالت : «نعم هلم بنا». ومشت تقود جوادها وراءها حتى وصلا إلى الجامع، فإذا هو مزدحم بالناس.

عثمان بن عفان

أرادت أسماء الدخول إلى الجامع فامتنع عليها المرور لكثرة الناس ، فنظرت إلى المسجد فرأت رجلاً ليس بالطويل ولا القصير ، حسن الوجه لولا ما عليه من أثر الجدرى، كبير اللحية وقد صبغها بالحناء، أسمر اللون، أصلع الرأس، وكان واقفاً على المنبر وهم بالكلام .. فنظرت أسماء إلى رفيقها مستفهمة عن الرجل فقال : «أنه الخليفة عثمان بن عفان يخطب فى الناس، وهؤلاء وفود أهل مصر والبصرة والكوفة وقد جاءوا يشكون عثمان ويتذمرون من تصرفه، فشكوه إلى على». فنظرت أسماء إلى الخليفة

ومن حوله، فلمحت بجانبه رجلا عرفت أنه صاحبها مروان، فقالت فى نفسها : «لقد جاء إلى ابن عمه ونسى الأمر الذى جاء من أجله». وجالت بنظرها فى الجميع لعلها ترى علياً .. على أنها لم تكن تعرفه ، فقالت لرفيقها : «ألا ترى عليا بين الجموع» ؟

قال : «أظننى رأيته.. بقرب المنبر» فنظرت إليه فإذا هو جميل الخلقة وقد خطه الشيب فلم يصبغ شعره.. فانتظرت أن يفرغ الخليفة عثمان من كلامه وكان قد انتصب واقفاً قال فى صوت متقطع.. «ياأهل الأمصار ، قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبوننى بأمور لم أكن أنا الذى ارتكبتها وحدى ، فإن صاحبى اللذين توليا أموركم قبلى (يريد أبا بكر وعمر) ظلما أنفسهما وأن رسول الله كان يعطى قرابته. وأما ماتريدونه من الفتنة أو الخلع فوالله لئن فارقتكم أنا سترون الدماء المسفوكة»، وكان على فى أثناء الخطاب مطرقاً ، وكان رفيق أسماء قد شغل عنها عندما سمع كلام عثمان، ولما انتهى الخطاب قال لأسماء: «أراك ياسيدى خالى الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكى تتفهمه أوضحه لك باختصار، اعلم أن خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين (أبا بكر وعمر) تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة ولما تولاها عزل الولاة الذين كانوا قبله ممن ولاهم الإمام عمر، وولى مكانهم رجالاً من بنى أمية من أقاربه ووسع أبواب الرزق لأهله وضيقها على سواهم، فثار المسلمون وهم أهل مصر والكوفة والبصرة.. أما أهل الشام فإنهم على عهد عثمان ، لأن الخليفة ولى عليهم معاوية بن أبى سفيان من أقرباء الخليفة، وأما أهل الأمصار الثلاثة الباقية فنقموا

علـى الخليفـة وجـاءوا يطلبون خلعـه وتوليـة غـيره مكانه . ولا يليق بالخلافة من هؤلاء جميعهم إلا على بن أبى طالب، فإنه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ووصيه. ولكن بين الصحابة الذين يطمعون فى الخلافة الآن اثنين آخرين هما طلحة والزبير. فالخلافة إذا خلع عثمان، تنازعها ثلاثة : على ،طلحة، والزبير. فوفد مصر يريدونها لعلى، ووفد الكوفة يريدونها للزبير، ووفد أهل البصرة يريدونها لطلحة، ولكنهم متفقون جميعاً على خلع عثمان».

وكانت أسماء تسمع كلام رفيقها وهى لا تفهم منه شيئاً لشدة اضطرابها، وما أتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعلمت أنهم خارجون، فتنحت ريثما يخرج الجميع وعيناها تتفرس فى وجوه الجماهير ، لعلها ترى علياً خارجاً معهم .. فخرج الجميع ولم تره بينهم، فتحولت نحو الجامع – وكان رفيقها قد سبقها إليه فوقفت تنتظره فعاد وحده وسألها : «هل رأيت عليا؟» ، فقالت إنها لم تره، فجعل يبحث بين الناس ويسألهم عنه، فلم يخبره أحد أين هو..

الحجرة النبوية

ثم عاد الرجل بأسماء إلى الجامع وقد خلا من المصلين ، وأخذ الخدم فى إطفاء المصابيح، فخافت أسماء أن يمنعوها من الدخول .. ولكنهم لما رأوا رفيقها وسعوا لهما، فعلمت أنه من كبار القوم.. فدخلا صحن الجامع ومنه إلى المسجد، فرأت المكان خالياً وبعد برهة قال الرجل : «أظنه دخل حجرة امرأته فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم فإنها مدفونة فى هذا المسجد فلابد من الانتظار

ريثما يخرج».

فقالت : «لا صبر لى يامولاى على الانتظار، دعنى أدخل إليه وأخاطبه فإن الأمر الذى جئت من أجله يستدعى العجلة».

فدخلا والرجل ممسك بيد أسماء فوقفا لحظة لعلهما يسمعان صوتاً، أو يشاهد شبحاً، ولكنهما سمعا صوتاً عميقاً كأنه خارج من القبر، فإذا بالصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة فإذا هو صوت على بن أبى طالب يناجى الرسول قائلاً : «قم يا رسول الله تعهد أمتك وانظر حالها من بعدك فلما فارقتنا خلفك شيخ (أبو بكر) حارب المرتدين وأيد الدين القويم، وخلفه رجل شاد للعدل مناراً فاعتز به الإسلام وامتدت رايته على العراق وفارس والشام وفر من وجهه كسرى وقيصر . والناس يومئذ مجتمعون حول الدعوة. حتى تولاهم عثمان وهو شيخ صادق الإسلام ولكنه استأثر بالسلطة وآثر أهله على سائر المسلمين. انصاع إلى شاب من أهل قرابته (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء» ، ثم سمعاه يقول : «فادع لنا ربك أن يجمع كلمتنا ويلم شعثنا، والسلام عليك حتى نلتقى».

كتائب عثمان

ثم سمعاه يقرأ الفاتحة فعلما أنه يتأهب للنهوض، فأسرعا إلى المسجد، وقد خف الزحام، ولم يمشيا قليلا حتى لقيا عليا خارجا من باب الجامع .

فتقدم الرجل إليه وحياه، فقال على : «مرحباً يابن أبى بكر، أهلاً بك يامحمد .. ما الذى جاء بك؟» ، فعلمت أسماء أن

رفيقها كان محمداً بن أبى بكر وكانت تسمع به. قال : «لقد جئتك بقادم غريب أنهكه البحث». قال : «.. أين هو؟:»

فتقدمت أسماء وألقت التحية وهى لاتزال ملثمة وقد التفت بالعباءة.

ثم قالت : «لقد جئت أدعوك لعون امرأة مريضة فى حالة خطرة جئنا بها من دمشق، فتحملت مشاق السفر والمرض على أمل أن تبلغ المدينة فتطلعك على السر. فاشتد ذلك المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول».

قال : «أين هى الآن؟».

قالت : «هى فى قباء على مقربة من هذا المكان».

قال : «هيا بنا إليها .. هل ترافقنا يا محمد؟».

قال : «إنى فى خدمتك حيثما سرت، وإذا رأيت أن أقوم بهذا الأمر دونك لما أنت فيه من المشاغل الكثيرة، فتبقى أنت هنا» ..

قال : «لكنها يا محمد امرأة فى شدة المرض يجب علينا أن ننجدها» قال ذلك ومشى نحو البيت يلتمس فرسه. لكنه لم يمش قليلاً حتى لقيه رجل مهرول فقال له : «ما وراءك ياغلام؟».

قال : «لقد عاد المصريون إلينا بعد خروجهم».

فقال : «وكيف عادوا وقد عهدناهم بما وعدهم به الخليفة من الإصلاح».

قال : «لا أدرى إلا أنهم عادوا إلينا فى غضب وهم ينتظرونك فى فناء دارك».

فقال على : «لا حول ولا قوة إلا بالله فوالله إنهم يرومون أمراً

عظيماً وأخشى من اختلال الحال».

فقال محمد : «لا يخلو رجوعهم من أمر ذى بال». وأسرعا حتى وصلا إلى بيت على، فرأيا الناس عند بابه وقد علت ضوضاؤهم ، فلما أشرف على عليهم هرولوا نحوه وفى مقدمتهم رجل حيا علياً فرد التحية ، وقال له : ما الذى عاد بكم إلينا وقد وعدكم عثمان خيراً.

قال : «إنه لم يعدنا إلا خداعاً» قال ذلك ومد يده فاستخرج أنبوبة من الرصاص، فتناولها على فرأى فيها صحيفة من جلد فإذا كتاب من عثمان إلى عامله بمصر يأمره بجلد زعماء المصريين الذين قدموا إلى المدينة للشكوى وحبسهم وحلق لحاهم وصلب بعضهم، فدهش على لذلك وتأمل الصحيفة فإذا فى ذيلها ختم عثمان فتحقق أنه ختمه ، فقال : «وكيف ظفرتم بهذا الكتاب» ؟

قال : «ما برحنا المدينة أمس على ما وعدنا هذا الرجل من إصلاح حتى لقينا غلام عثمان .. ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الأنبوبة».

فقال على : «إنا لله وإنا إليه راجعون. ما الذى غير عثمان وحمله على هذا العمل ؟».

فقال محمد بن أبى بكر: «إنه مروان بن الحكم ابن عم الخليفة هو الذى أغرى عثمان بذلك».

فلما سمعت أسماء ذكر مروان ازدادت كرهاً له، وأيقنت أن ذلك سيكون سبباً فى عدول على عن المسير معها، فكلمت محمداً .. فقال : «لا تخف إننا منجدوك». وخاطب علياً بشأنها فقال له

على : «إنى أخاف إذا برحت المدينة فى هذا الليل أن يقع ماننـدم عليه. سر يا محمد مع هذا النزيل وقم عنى فى كل خير يرجونه».

ولم تجرؤ أسماء على الإلحاح فقنعت بما وقع والتفتت إلى فرسها فإذا بالغلام يقوده وراءها فتهيأت للركوب .. وبعث محمد فاستقدم فرسه ، وركب الاثنان فخرجا من المدينة والظلام حالك ولما أشرفا على قباء وأطلت أسماء على خيمة والدتها خفق قلبها خوفاً أن يكون قد وقع سوء لوالدتها أثناء غيابها وما أن أدركا الخيمة نزلت أسماء عند باب الخيمة وترجل محمد، فدخلت وهى تحمل عقال كوفيتها وتنزع العباءة عن كتفيها ، ودنت من سرير والدتها فإذا هى قد أفاقت وفتحت عينيها ونظرت إلى أسماء بلهفة، وقالت : «أين هو على ؟». فخشيت أسماء إذا أخبرتها الحقيقة أن تزعجها فيزيد مرضها فقالت: «إنه آت يا أماه» واغرورقت عيناها بالدموع، أما محمد فقد كان يتفرس فى أسماء على نور المصباح ، فلما نزعت كوفيتها رأى شعرها طويلاً مسترسلا، وعرف أنها فتاة ، فشعر بإعجاب غريب نحوها ..

ضياع السر

أما هى، فقد كانت فى شغل عنه بما هى فيه من القلق على والدتها وكانت قد اطمأنت قليلاً إذ رأتها على قيد الحياة ، وقد ندمت على عودتها بغير على، ولكنها أيقنت أن مجيئه لم يكن ممكناً. ثم حولت الأم وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان إليه وقالت : «محمد بن أبى بكر؟».

وابتدرها وأجابها : «إنى هو وماذا تأمرين ؟».

قالت : «أين هو على ؟».

قالت : «قد بعثنى لأنوب عنه لأنه فى شغل هام .. فمرنى بما تريدين». قالت : «لا أريد أحداً غير على أدركونى به ، فإن فى نفسى سراً لا أبوح به إلا له، أدركونى به قبل انقضاء أجلى».

فنظرت أسماء إلى محمد نظرة ذات معنى ، فنهض للحال وقال لأسماء : «إنى ذاهب لاستدعائه». وخرج.

وعادت أسماء إلى سرير والدتها وقلبها يخفق خوفاً عليها، فإذا هى قد غيرت وضعها فتحولت إلى جنبها الآخر وأطبقت أجفانه فخافت من منظرها. إذ رأت عينيها شاخبتين جامدتين. فاضطربت الفتاة وهمت بوالدتها فجستها .. فإذا هى باردة جافة وأسرعت إلى باب الخيمة وفيما هى تتحول سمعت والدتها شخرت شخرة عنيفة وعادت إلى السرير وهى تحسبها ستتكلم فانحت عليها وقبلتها فى جبينها فإذا هو بارد جاف .. فاقشعر جسمها وازداد خفقان قلبها ولم تكن رأت ميتا من قبل.

سمعتهم يقولون : «جاء على» فصاحت صيحة ارتج لها المكان وقالت : «لقد أبطأت ياأبا الحسن ان والدتى ماتت ومات معها سرها»، ثم نظرت إلى أمها وهى مسجاة، وقالت لها : «قومى يا أماه فقد جاء على .. قومى إليه واطلعيه على سرك، قومى واشفقى على ابنتك».

أما على فترجل وقد شغله النظر إلى الفتاة عن الالتفات إلى الميتة. وكانت وجنتا أسماء قد توردتا وذبلت عيناها من شدة البكاء وقد زادها الحزن هيبة ووقاراً. وكان أكثر

النـاس تأثراً لمنظرها محمد بن أبى بكر .

وأخذ علىّ يخفف عن أسماء وكانت جالسة القرفصاء، فتقدم إليها وأمسكها بيده وقال لها: «تصبرى يا ابنتى، إن الحزن والبكاء لايجديان نفعاً . إن والدتك قد سبقتنا إلى دار البقاء الأخير.. فالله يرعاك، واتخذينى لك أبا ثانياً، وألق همك بعد الله على، واصبرى إن الله مع الصابرين» . وأجابت عليا وصوتها مختنق قائلة : «شكرا لك يا رجل المسلمين، إنى لا أشك فى عطفك ولا أرى راحة إلا فى رضاك» .

أما محمد فقد أحس بالميل الشديد إلى أسماء وهو لايدرى بماذا يعزيها ولا كيف يخفف عنها، ثم مالبث أن سمع عليا يناديه، فخلا به جانبا وقال : «لا أرى ثمة حاجة إلى بقائى هنا وقد ماتت حاملة السر» .

ثم نادى على يزيد فقال له : «لقد أوصيت محمداً أن يقوم على كل شأنكم وإذا نزلتم المدينة فأنتم فى حمانا وسأقدم لكم ما تحتاجون إليه» ، فتظاهر يزيد بالشكر، وهم بتقبيل يدى على.. ثم تقدم إلى أسماء فعزاها أخبرها بأن محمداً باق لمواساتهم ثم ركب جواده وودع محمداً وسار قاصداً المدينة.

الرحيل

تقدم محمد إلى يزيد يسأله عن حاجته، فتلطف هذا فى الثناء وبالغ فى الشكر لما لاقاه من المواساة .. فقال محمد : «أتريدون الذهاب إلى المدينة فتنزلون عندنا، فإن عليا أوصانا بذلك» ، قال يزيد: «لقد تفضلتم بما لا طاقة لنا على شكره، لنا أهل فى المدينة

لابد من النزول عندهم» .

قال محمد وهو ينظر إلى أسماء : «إذن أرجو ألا تنسونا فإن سيدى عليا – حفظه الله – أوصانى بكم خيراً» ، ثم وقف، ووقف يزيد .. فودعه وودع أسماء..

وعاد إلى المدينة، وقد تعلق ذهنه بأسماء واشتغل قلبه بها. وكانت أسماء قد شعرت بامتنان لعلى وارتياح إلى محمد .. وأحست بأنهما سند عظيم لها عند الحاجة، ولم يكد محمد يتوارى حتى أمر يزيد عبيدا كان مروان قد أرسلهم لخدمته، فقوضوا الخيام وحملوا الأحمال وركبوا وركبت أسماء وسار الركب نحو المدينة.

حتى وصلوا منزلا وراء الجامع محاطاً بسور منيع له باب ضخم فعلمت أنه دار عثمان .. لم تكد تدخل المنزل حتى لقيها مروان .. فلما رأته استعاذت بالله وندمت على مجيئها ، فلما شاهدها مروان بالثوب الأسود وقد زادها جمالاً ازداد تعلقه بها فتقدم نحوها معزيا ، وسار فى خدمتها إلى داخل الدار وهى لا تنطق بكلمة.

الحيلة

فرأى مروان أن من الحكمة أن يتركها فى الغرفة تستريح، فخرج يدبر وسيلة لاسترضائها .. فخطر له أن يوسط بينه وبينها نائلة زوجة الخليفة ، وكانت نائلة ذات مقام رفيع لزواجها من الخليفة .. على أنها لم تكن من قريش، بل هى من بنى كلب، وكان والدها نصرانياً يقيم فى الكوفة وكانت حسنة الخلق . ولم تكن ترتاح إلى مروان لطيشه ، وكثيراً ما كانت تخالفه فيما يشير به على زوجها

وطلبت من زوجها أن لا يصغى إليه.

فسار مروان إليها، وكانت فى اضطراب عظيم لما أحاط بزوجها من الأخطار.. فلما رأته قالت: «ما وراءك يامروان؟» قال: «ما ورائى إلا الخير يا خالة. إنى أراك فى قلق من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الملك من أيدينا. إنهم بعيدون عن نيله، فقد كتبنا إلى معاوية فى الشام وبنى عامر ورؤساء بنى أمية نستقدمهم إلى نجدتنا. فإذا جاءوا لم يستطع المصريون أو الكوفيون أو البصريون النيل منا، إننا نحن الفائزون بإذن الله».

قالت: «دعنا من المزاح يامروان إن الأمر خطير»، قال: «بل هو أهون مما تظنين والدليل على ذلك أننى أسعى جهدى إلى استرضاء عروس جميلة جئت بها إلى هذا المكان».

قالت: «وأية عروس؟»

قال: أسماء بنت يزيد الأموية.. إنها يا خالة على جانب عظيم من الجمال».

فسكتت نائلة وهى تعجب لطيش مروان وخفته.. لاستخفافه بما أحاط بزوجها من خطر.

فى دار عثمان

وفى الصباح التالى ولم تكد أسماء تجلس على الفراش حتى دخل والدها وقبلها قبلة الوالد، والرياء ظاهر على وجهه، فقال لها يزيد: «أنهضى يا ابنتى وأصلحى من شأنك.. وهيا بنا إلى مولاتنا نائلة زوجة مولانا أمير المؤمنين» فنهضت ولبست ثوبها وسرحت شعرها وأرسلته إلى الوراء، وخرجت حتى بلغت دار عثمان.. فرأت

فيها مايليق ببيوت الخلفاء من الجوارى والغلمان فمشت حتى بلغت غرفة نائلة.. فلما سمعت نائلة وقع أقدامها استعدت للقائها وقد أعجبت بجمالها وهيبتها، فضمتها إلى صدرها وهى تقول: «أهلا بضيفتنا الحبيبة.. أهلاً بابنتنا العزيزة».

فأدركت أسماء مرادها، فقالت: «أبهذا الكلام تعزيننى يامولاتى.. دعينى أبكى والدة حنونا فقدتها بالأمس وإذا كنت تشفقين على فأبكى معى». فتأثرت نائلة لحالتها وأجلت مخاطبتها فى شأن مروان إلى فرصة أخرى.

سر آخر

وفى صباح اليوم التالى، بكرت نائلة إلى غرفة أسماء فوجدت الباب مغلقاً، ففتحته بلا استئذان فرأت أسماء لاتزال نائمة وقد أغمضت جفنها. فوقفت نائلة تتأمل جمالها. فلمحت على معصمها وشما على شكل الصليب.. فاستغربت ذلك لعلمها أنها مسلمة، ولا يتخذ ذلك الرسم غير المسيحيين.. وكانت أسماء قد شعرت بوقوف نائلة إلى جانبها، فغيرت وضعها فانشق صدر ثوبها فبان من تحته قلادة من فضة قد تعلق فيها حجاب صغير أشبه بحجاب المسيحيين، فازداد تعجبها واستغرابها وتعاظم ميلها إلى استطلاع السر. وبينما هى تفكر فى ذلك، ورفعت أسماء يدها إلى عينيها فمسحتها، فرأت نائلة واقفة عند رأسها فتملكها الخجل، فحيتها نائلة فردت التحية وهى تهم بالوقوف، فأقعدتها وقالت: «استريحى يابنتى.. إنى لا أريد إزعاجك ولم آت إلا التماساً لراحتك»، فأثنت أسماء على فضلها ودعتها للجلوس،

فجلست نائلة على جانب السرير وهى ممسكة بيد أسماء تنظر إلى رسم الصليب فيها ، ثم قالت : «لقد استغربت هذا الرسم على معصمك وعهدى بك مسلمة .. فهل رسمته على سبيل الزينة ؟» قالت : لا «أعلم كيف رسمته ولست أذكر يوم رسم، لأنى كنت طفلة وقد سألت والدتى عن سببه فلم تخبرنى «قالت : «وما هذا الحجاب الذى فى عنقك» ؟ فمدت أسماء يدها إلى الحجاب، وأخرجته من بين أثوابها، وقالت : «ولست أدرى من ألبسنى أياه» قالت نائلة : «ولكنه حجاب مسيحى» !.

قالت : «لعله كذلك ، ولكننى لبسته طوعاً لأمر والدتى .. فقد أوصتنى أن أحتفظ به منذ طفولتى» فازدادت رغبة نائلة فى البحث عن الحقيقة فقالت : «ألا أخبرتنى ياأسماء كيف وصل إليك هذا الحجاب وكيف رسم على يدك هذا الصليب .. أخبرينى ولا تخافى فإن النصارى أهل ذمة عندنا. وفضلاً عن ذلك فقد ولدت فى بيت مسيحى، وكان والدى نصرانيا» ، فتذكرت أسماء والدتها وكتمانها اسم والدها الحقيقى فتنهدت وصمتت، فعجبت نائلة لسكوتها وكتمانها للأمر ، فقالت لها : «ما بالك صامتة ؟.. صرحى لى بسرك ولا تخافى فإنك بمنزلة ابنتى» .

قالت أسماء : «بماذا أصرح لك وأنا لا أعلم عن هذا السر شيئاً، وأعترف أنى منذ فتحت عينى وأنا أرى هذا الصليب وهذا الحجاب، ولا أعلم من أمرهما شيئاً» ، ولكن والدتى أخبرتنى أن يزيد الذى يزعم أنه والدى ليس فى الحقيقة كذلك، وكنت أظنه والدى ثم علمت أنها تزوجته فى مصر على أثر قدوم عمرو بن

العاص إليها وكان يزيد فى جنده، فكانت والدتى نصيبه من الغنيمة وكنت يومئذ لم أتجاوز العام » .. وبينما هما كذلك إذ سمعتا وقع أقدام مسرعة أمام باب الغرفة فالتفتتا فإذا يزيد قد دخل مسرعاً وعلى وجهه أمارات البغتة، فلما رأى نائلة هناك تأدب فى وقوفه وحياها . فقالت : «ما وراءك أخا أمية ؟» ، قال : «خرجت فى هذا الصباح باكراً فى مهمة بعثنى بها مروان فرجعت الآن ولم استطع الدخول إلى هذا المنزل إلا خلسة» .. فنهضت نائلة وقالت : «ما الذى منعك من الدخول ؟» ، قال : «أقوام تجمهروا حول منزل أمير المؤمنين بخيلهم وأسلحتهم وقد علا ضجيجهم، ولست أدرى ماذا ينوون ؟» فبغتت نائلة وقالت : «وماذا يايزيد ؟ قل !» ، قال: «لعلهم ينوون شرا!» .

حصار عثمان

فخرجت نائلة مهرولة وخرجت أسماء فى أثرها، حتى دخلتا إلى دار عثمان، فرأتا الناس جماعات وقد تجمهروا بأسلحتهم وخيولهم وعلا صياحهم، فاضطربت نائلة، أما أسماء فظلت رابطة الجأش ...، وبينما هما فى صحن الدار إذ سمعتا ضوضاء ورأتا نفراً من المهاجرين يهمون بالدخول إلى الدار فهمست نائلة فى أذن أسماء وقالت : «هؤلاء هم كبار الصحابة قد أتوا ولا ندرى ماذا يبغون من أمير المؤمنين» ! ونظرت أسماء إليهم فرأت عليا بينهم ثم سارت بها نائلة إلى أقرب حجرة وأغلقت الباب فإذا هما فى حجرة بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ، ونائلة لاتزال ممسكة بيد

أسماء، فقالت لها : «ما الذى أخافك ياخالة ؟».

قالت نائلة بصوت مختنق : «أخافنى مجىء هؤلاء ، فإنهم لايأتون إلا لتوبيخ وتهديد» ، قالت : «ومن هم» ؟ قالت نائلة : «على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم أوجه الصحابة، ولهم مطمع فى الخلافة [1] .. كل منهم يطلبها لنفسه، أما الناس المحيطون بمنزلنا فهم أهل الكوفة والبصرة، جاءوا ليطالبوا الخليفة بأمور ليست فى الإمكان».

أسباب الفتنة

قالت أسماء: «وبماذا يطالبونه ؟» ، فأجابت نائلة بصوت منخفض : «إنهم يزعمون أنه أستأثر بالسلطة وآثر أقاربه فى مصالح الحكومة، فولاهم الأعمال دون سواهم ، وأنه خص نفسه بالأموال الطائلة واقتنى المماليك ، وأنه يعطى المال لأقاربه هذا ما يزعمونه ولكن الحقيقة غير ذلك» . قالت أسماء: «وما هى الحقيقة إذن؟» ، قالت نائلة : «أما استئثاره بالسلطة فذلك من حقه لأنه أمير المؤمنين، وأما تفضيل أقاربه فلم يكن هو أول من فعل ذلك، وأما أنه اقتنى مالا كثيراً ووسع على نفسه وعياله فذلك من حق المنصب . هذا إلى أن أمير المؤمنين يطعم الناس طعام الأمراء أما طعامه لنفسه إنما هو الخل والزيت، أتعدين من يفعل ذلك طامعاً

١ - تصور المؤلف الذى أورده على لسان السيدة نائلة من أن أوجه الصحابة يطمعون فى الخلافة هو تصور شخصى و إذا وردت به روايات تاريخية فإن تصور حال الصحابة فى العصر الأول يختلف مع هذه الروايات ويناقضها كما تناقضها روايات أخرى أقرب إلى حال الصحابة فى ذلك العصر من الزهد فى المناصب وعدم التكالب عليها وكما قلت فى المقدمة أن جرجي زيدان لم ينفرد وحده بمثل هذا الاتجاه لكن مؤرخين مسلمين ساروا فى نفس هذا الاتجاه الذى يؤخذ من روايات موجودة فى كتب التاريخ - (د.عبدالمعطى بيومى) .

فى الدنيا ؟» ، قالت أسماء : «فإذا كان الأمر كذلك، فما الذى دعاهم إلى هذه الثورة» ؟

فتنهدت نائلة ثم قالت: «إن الذى حرضهم على ذلك رجل يهودى اسمه عبد الله بن سبأ، أسلم حديثاً وأخذ يتنقل فى الحجاز والبصرة ، ثم الكوفة ثم الشام يريد أن يضلل الناس.. فأخرجوه من الشام فذهب إلى مصر وأقام فيها ، فوجد هناك آذاناً صاغية، فجعل يقول لأهل مصر إن محمدا رسول الله أوصى بالخلافة لعلى وزعم أن أمير المؤمنين عثمان أخذ الخلافة بغير حق فبدأ الفساد من ذلك الحين، هذا هو سر الأمر يا ابنتى ولا صحة لما ذكروه من إحراز الأموال وتفضيل الأقرباء» ، فتأثرت أسماء ومالت كل الميل لنصرة عثمان، واتجهت الاثنتان نحو الباب المقفل بينهما وبين مجلس الخليفة ، وفى الباب شق، فنظرت أسماء منه فرأت عثمان جالساً فى صدر المجلس ورأت جماعة من أمية، ثم سمعت خفق نعال عند باب المجلس وإذا بعثمان قد هم ووقف لاستقبال القادمين إكراماً لهم فكان أول من دخل منهم على بن أبى طالب وحيا عثمان بتحية الخلافة قائلاً : «السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» . ثم دخل بعده رجل يميل إلى القصر حسن الوجه كث الشعر وقد شاب شعره فرأته قد حيا وجلس بجانب على .. فالتفتت إلى نائلة وسألتها عنه فقالت : «إنه طلحة بن عبيد الله» ، ثم دخل فى أثرهما رجل أسمر اللون فقالت أسماء : «ومن هذا؟» قالت : «هو الزبير بن العوام».

الشورى

بدأ علىّ بالكلام قائلاً : «يعلم الله أننا جئنا نريد بك خيراً ،إنك ياأمير المؤمنين ابن عم الرسول وقد تزوجت باثنتين من بناته وتلك كرامة لم ينلها غيرك وأنت أول من هاجر إلى الحبشة وتوليت الكتابة وجمعت القرآن فأنت يا أمير المؤمنين من خيرة الصحابة، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنك، وبشرك بالجنة ،فلا نرضى أن تكون الأمة ناقمة عليك حتى يقوموا بخلعك أو قتلك ونحن نعلم أنهم إذا تمكنوا من ذلك كانت الفتنة – نعوذ بالله منها – فتنقسم الأمة»، وكان على يتكلم وعثمان يقلب فى صفحات مصحف بين يديه، ثم قال : «وبماذا تشيرون على ؟»، فقال على : «نرى أن تخاطب الناس فإنهم هاجوا وأحاطوا بدارك ناقمين فقم وعدهم خيراً» قال عثمان : «لقد طالما وعدتهم وطمأنتهم فلم يرضوا» ، قال على: «لقد وعدتهم ثم أخلفت وقد أصغيت لابن عمك مروان وهو غلام لايفقه شيئاً. فقم إليهم وخاطبهم» ، فقال عثمان : «إنى أقوم وأخاطبهم ولا يصعب على ذلك، ولكننى أود معرفة السبب الذى حملهم على هذه الثورة، فأخبرونى به فإذا كنت مخطئاً استغفرت وأذعنت» ، فابتدره الزبير قائلاً : «هم يقولون أنك استأثرت بالإمارة واستخدمتها لنفع أقاربك وجمع الأموال، فإنك تملك نحو مائة ألف وخمسين ألف دينار وألف درهم نقوداً وقد اقتنيت الخيل والإبل والمماليك بينما كان الفاروق (عمر بن الخطاب) يرقع ثوبه بالجلد ، فالتفت عثمان إلى الزبير وقال : «أتقول أنت ذلك ياابن

العوام؟ أتحسبون حشد الأموال ذنباً يستوجب القتل ألا تملك خمسين ألف دينار وألف فرس وألف عبد ماعدا الدور والضياع، وهذا طلحة وزيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة عندهم الأموال الوافرة، أأنتم ورثتموها عن آبائكم أم هى من مال حلال لنا جميعاً غنمناها فى الجهاد بنعمة الإسلام» ، ثم وجه عثمان خطابه إلى الجميع وقال: «وأما إعالتى أقاربى فقد كان رسول الله يعطى قرابته» ، فلما سمع علىّ قوله قال : «يخيل إلى ياأبا عبد الله أن سبب هذه الفتنة إنما هو ماذكرت من استكثار المال فإنه يفرق بين الأب وابنه ولكن مالنا ولهذا الجدال فقد جئنا نلتمس حسم الخلاف وهو لايكون إلا بمخاطبة هؤلاء الناس المحيطين بهذا الدار» ، فقال عثمان: «إنى أول من اتعظ ولا أحب أن تهرق بسببى قطرة من دم» ، قال ذلك وخرج من الغرفة ليخطب فى الجميع وتبعه رفاقه ثم أشرف عثمان على الجموع فلما رآه الناس علا ضجيجهم ونظروا إليه فقال وصوته يتلجلج : «ياأيها الناس إنى أول من أتعظ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه» ، ولم يتم كلامه حتى اختنق صوته وترقرقت الدموع فى عينيه، ثم دخل عثمان الغرفة وقد امتقع لونه وهاجت عواطفه . وإذا بمروان يدخل الغرفة والسيف إلى جانبه ولما اقترب من الخليفة وجلس إلى جانبه وحياه تحية الخلافة ثم حياه رفاقه قال عثمان تكلم فقال : «بأبى أنت وأمى والله لوددت أن مقالتك التى قلتها اليوم على مسمع من المسلمين كانت وأنت مرغم ، وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس يريدون أن ينزعوا ملكنا من أيدينا» ، وكان عثمان يسمع قول

مروان وهو مطرق يفكر وأسماء تراقب حركاته وهى تخاف أن يصغى لمروان فلم تستطع أن تمسك عن الكلام، فوقفت وخاطبت الخليفة قائلة : «أيأذن أمير المؤمنين بكلمة؟» قال : «قولى يابنية..» وكان مروان لما رآها حول نظره نحوها وهو يعجب بشجاعتها وتحولت أنظار جميع الحضور إليها ينتظرون ماتقوله فلما أذن لها قالت : «لاأذكر أن وقوفى بين يدى أمير المؤمنين ودخولى فى شئون إمارته يعد جرأة وتطفلا ولكننى ألتمس لنفسى عذراً هو أننى إنما وقفت لأقول كلمة فى صالح مولاى الخليفة . إنى ياأمير المؤمنين أرى فى الإصغاء لقول ابن عمك هذا انقيادا للفتنة بعد أن نامت ومدعاة للقتال وإثارة للحرب. فإن استسلام أمير المؤمنين لمشورة مروان قد تؤدى إلى شر عظيم» ، فلما سمع مروان قولها قهقه استخفافا ولم يجبها، فغضبت أسماء وقالت له: «كفاك تغريرا بأمير المؤمنين» ، فأجابها مروان فى غضب «ليس من شأنك المشورة على أمير المؤمنين» ، قالت : «لم أقف فى حضرته إلا بإذنه» ، وعندئذ أشار عثمان إلى نائلة، فنهضت وأمسكت أسماء وتحولت بها إلى غرفة أخرى. ومضى مروان يحث الخليفة على الرجوع فى وعده قائلاً : «كيف تقول ماقلته على مسمع من الألوف على اختلاف قبائلهم فقد أذللتنا وأشمت الناس بنا» ، فأجابه الخليفة: «وما العمل إذن؟» ، قال مروان : «العمل أن نبين لهم أننا لسنا بخائفين من كثرتهم» ، قال عثمان : «أما أنا فلا أكلمهم لأنى استحى أن أقول قولاً ثم أرجع فيه» ، قال مروان : «أنا أخرج إليهم» . قال ذلك وخرج وقد أشرف على الناس من

فوق سور الدار وقال : «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله مانحن بمغلوبين على ما فى أيدينا» ، فضج الناس وملأ ضجيجهم الفضاء.

أسماء ومحمد ومروان

سارت أسماء إلى غرفتها وهى تتوقع أن يأتيها مروان، ثم سمعت دقا على الباب فوثبت إليه وفتحت وقد تهيأت للقاء مروان فإذا بالباب محمد بن أبى بكر، فبدت عليها أمارات البغتة. فلما رآها محمد على تلك الحال ابتدرها قائلاً : «ما بالك ياأسماء؟.. ما الذى أخافك» ، فتجلدت وقالت : «لاشىء يخيفنى يا محمد» ، قال : «ولكننى أراك فى اضطراب كأنك كنت تخافين أحداً، إنى أراك تكتمين فى نفسك أمراً مهماً» .

قالت : «لا أكتم شيئا» ، وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق إلى نصفه، فلم يتم محمد كلامه حتى رأى مروان يدخل وملامح الغضب تلوح على وجهه وقد حمل سيفه بيساره، فلما رآه محمد على تلك الحال توسم الغدر فى عينيه فنظر إليه شزرا. أما مروان فقال وقد علا وجهه الاصفرار والبغتة : «ما الذى جاء بك إلى هذه الدار يا ابن أبى بكر؟» ، فقال محمد : «ماشأنك وهذا؟، ما أنا فى منزلك؟» . قال : «بلى إنك فى دار الخليفة وقد دخلت على نسائنا بغير استئذان» .. فاستغرب محمد قوله ونظر إلى أسماء كأنه يسألها عن مغزى تلك العبارة ، فإذا هى تقول بقلب لايهاب الموت: «إن مروان يتكلم من تلقاء نفسه فيما لا تناله يده مهما

تطاولت» ، فابتسم مروان ابتسام الاستخفاف وقد اشتد غيظه وقال : «سلى والدك إذا كانت يدى ستنال أم لا» ، قالت : «دع الآن الآباء وارجع من حيث أتيت وإلا أسمعتك مالا يرضيك» .. فضحك مروان وتوكأ بيده على سيفه وقال : «ألا تعلمين أنك إذا بقيت على غرورك ندمت حيث لاينفع الندم، ودواؤك يا أسماء عندى» . قال ذلك وخرج. نظر محمد إلى أسماء فأعجب بما خصها به الخالق من الهيبة والأنفة، فأمسكها بيدها وأرجعها إلى السرير قائلاً : «بورك فى شهامتك يا أسماء ولكننى أراك قد اهتممت بهذا الشاب أكثر مما يستحق فاتركيه وشأنه» ، ثم قال: «مالك والإقامة فى هذا المكان؟.. تعالى نذهب معا إلى منزل على فتقيمين فيه ضيفة مكرمة» ، فقالت : «أتريد أن أفر من هذا المكان؟.. كلا لن أبرح هذا المكان حتى أرى مايكون من أمر هذا الغلام الغر» . فبدت الحيرة على وجه محمد . ترى كيف يخرج بها من ذلك المنزل وقد همه بقاؤها هناك غيرة عليها، ثم أراد أن يستطلع مدى العلاقة بينها وبين مروان فقال : «وما الذى جعل له هذه الدالة عليك، فهل تعرفينه من قبل؟» ، فتنهدت وقالت: «إننا عرفناه فى الشام وقد رافقنا فى سفرتنا المشئومة إلى قباء وهو الذى كان السبب فى التأخر وفى موت والدتى قبل وصول على» .. فعجب محمد وقال : «كيف كان سبب ذلك التأخير؟» ، قالت : «إن هذا الشاب قد رافقنا لمطمع كان فى نفسه ولولا ضعف والدى وانحيازه لما استطاع المسير معنا خطوة واحدة» ، ففهم محمد مرادها فازداد بغضا، وأحس بنيران تشب فى قلبه وصمت برهة يفكر ثم

قال : «فاصغى لقولى وتعالى معى فنتخلص من وقاحته» ، قالت : «أما الآن فلا أخرج من هنا لأن فى خروجى عاراً ، ولكنى ربما خرجت فى فرصة أخرى» .

يزيد

قال محمد : «إنى لا أرى عاراً فى خروجك من هذا المكان إلى منزل على وهو الذى كلفنى بذلك، ولا أخفى عنك أن الخليفة لن ينجو من الخلع أو القتل وخصوصاً إذا ظل مصغياً لمشورة مروان، فهيا بنا» ، فهمت بالجواب ولم تكد تفعل حتى سمعت سعال والدها الذى دخل الغرفة فجأة، ولما رأى محمد تقدم إليه وحياه. فقال له محمد : «لقد جئتكم مندوباً عن مولاى أبى الحسن أدعوكما للنزول عنده إذا كنتما تجدان فى الإقامة هنا تعبا بسبب جواركما لبيت الخليفة والناس محيطون به كما ترون» ، فقال يزيد : «لاأظن أن علينا بأساً إن بقينا هنا وقد انحسم الخلاف على ماسمعت» . فنهض محمد وودعهما وخرج.

أسماء فى منزل الخليفة

فكر يزيد بعد ذلك ، فلم ير خيراً من أن يدخل أسماء بيت الخليفة لتقيم فيه، فتركها فى الغرفة وقصد نائلة وترامى على قدميها وبكى.

فقالت نائلة: «ماذا يبكيك ياأبا أسماء؟» ، قال: «يبكينى ياسيدتى حال ابنتى من الحزن والنواح على فقد والدتها.. وهى وحيدة، فلا آمن إذا بقيت مقيمة وحدها أن تصاب بجنون. وكثيراً ما أراها تهم بالخروج إلى مدفن والدتها للندب والبكاء، فأمنعها

بالحسنى فلا تمتنع». فقالت نائلة: «وماذا ترى أن نعمل؟»، قال: «أرى أن تكون عندك وتحت جناحك». فسرت نائلة بذلك الرأى لأنها استأنست بأسماء وارتاحت لحديثها وأعجبت بشهامتها. فقالت: «لك على ذلك، فأت بها إلينا». قال: «أخشى أن أحملها على المجيء فلا تطيعنى لفرط حزنها، ولأنها أصبحت تسيء الظن بى وقد تعترضنى فى كل عمل أعمله فإذا رأيت أن تدعيها أنت فإنها ستقبل». قالت: «إنى فاعلة ذلك» وهمت بالنهوض والمسير إليها.. أما أسماء فلما خلت بنفسها تذكرت مصائبها، ومن أعظم تلك المصائب تسلط والدها الغادر.. فأغلقت باب الغرفة وأخذت تبكى وتندب سوء حظها. وبينما هى تبكى دخلت عليها نائلة، فلما رأتها على تلك الحال تحققت من قول والدها فقالت لها: «ما بالك تبكين ياأسماء، وأنت تعلمين ألا فائدة من الحزن». فلم تزد أسماء إلا بكاء حتى هاجت أشجان نائلة لتذكرها حال زوجها والخطر المحدق به فبكت معها. فلما رأتها أسماء تبكى قالت: «ما الذى يبكيك ياسيدتى وأنت زوج الخليفة أمير المؤمنين؟»، فازدادت نائلة بكاء وقالت: «كيف لا تعلمين سبب بكائى وقد شهدت بعينيك ما أحاط بنا من البلاء بسبب طيش ذلك الشاب الغر؟»، ولما سكن روع نائلة قالت: «إنك ياأسماء خير من يعزينى فى هذه المحنة فإذا كنت تحبيننى فتعالى نقيم معا فى منزلنا». فخيل لأسماء أن حب نائلة قد يكون عونا لها على التخلص من مروان فقالت: «إنى طوع إرادتك ياسيدتى لأن الإقامة تحت جناحيك شرف عظيم لمثلى».

التهديد

ولما أمسى المساء تناولتا العشاء فى غرفة المائدة، والخدم والجوارى وقوف بين أيديهما والاضطراب ظاهر على وجوههم، فلما فرغتا من الطعام وتحولتا إلى حجرة النوم نادت نائلة رئيس الخدم وسألته عما هناك من الأخبار. فقال: «إن مولاى الخليفة لم يذق طعاماً فى هذا المساء وهو فى اضطراب وارتباك شديدين». قالت: «وما الذى دعاه إلى ذلك؟»، قال: «أنظرى إلى الناس حول الدار وعند الأبواب انهم قد حاصرونا ومنعوا عنا الماء». فبغتت نائلة وصاحت: «وكيف يمنعون عنا الماء؟»، قال: «لقد منعوه ياسيدتى ونحن إنما نستقى الآن مما بقى فى الآنية من أمس ولا ندرى إذا ظل الحصار كيف نستقى.. فضربت نائلة كفا بكف وصاحت: «ويلاه كيف يمنعون الماء عن أمير المؤمنين؟.. إن عملهم هذا لا يقوم به مسلمون أو كافرون». فقالت أسماء: «لا يسوؤك ذلك ياخالة، إنى ضامنة لك السقاء مهما بالغ هؤلاء فى الحصار». قالت نائلة: «وكيف تستطيعين ذلك؟»، قالت: «الأمر سهل، يحمل الماء إلى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقله سراً إلى هذه الدار». فارتاحت نائلة لهذا الرأى ولكنها كانت تخشى عاقبة الحصار، ولم تكد تجلس حتى سمعت وقع أقدام فى الدار فنهضت مسرعة ولم تكد تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تأهب للسفر. فلما رآها سلم عليها وتقدم نحوها، فاستعاذت بالله من رؤيته وقالت: «ما الذى جاء بك يامروان»؟ قال: «إنى سائر فى مهمة وقد جئت لوداعك.. وهل تلك الفتاة الدمشقية عندك»؟

قالت: «هى عندى وما غرضك منها؟ اذهب فى مهمتك»، قال: «أريد أن أراها قبل سفرى». فقالت له نائلة: «سافر ياولدى لعل فى السفر راحة لنا ولك»..

الدفاع عن عثمان

قضت أسماء فى دار عثمان بضعة أسابيع، والدار محاطة بالرجال ليلاً ونهاراً وقد منعوا الماء عنها، ولولا ما أشارت به أسماء من تحويل المياه بواسطة آل حزم لمات أهل الدار عطشاً. أما نائلة فلم تعد تستطيع صبراً على تلك الحال. ففكرت فى الاستنجاد بعلى وشكت همها إلى أسماء فقالت لها أسماء: «إنى أود أن أعرض عليك رأيا أرجو أن ينال موافقتك أرى أن أسير أنا إلى على وأطلعه على الأمر فلعله يسعى فى إخماد الفتنة وهو رجل الخير ويهمه صلاح هذه الأمة». فأجابتها نائلة: «إذا فعلت ذلك سأحمل لك جميلاً لا أنساه». قالت: «إنى ذاهبة فى مساء الليلة خفية فلما كان الغروب وخرجت من دار عثمان تلتمس بيت على. وكان على جالساً فى بيته بعد صلاة المغرب وعنده طلحة والزبير وأمراء المسلمين الناقمين على عثمان. وشاهدت فى فناء البيت جماهير الناس من أهل مصر والكوفة والبصرة فى ضجة وغوغاء. فوقفت بينهم دون أن يفطن لها أحد فسمعت الأمراء يتحدثون فى ضجة وصخب وكلهم ينادون بقتل عثمان أو خلعه، وعلى يخفف عنهم ويوبخهم على ما أرادوه من الشر وهو يقول: «والله ياقوم لا أرى فى مقتل الخليفة إلا تعاظم الفتنة.. إنكم والله ستختلفون على من يلى الخلافة بعده فأبقوه خيراً لكم». فانشرح صدر أسماء لشهامة على

ودفاعه ودنت منه فالتفت الأمراء إليها فكشفت عن وجهها، فلما رآها على رحب بها قائلاً: «أهلا بفتاتنا ومرحباً ما الذى جاء بك»؟ فاستغرب الحضور ترحيبه بها وهم لا يعرفونها، أما هى فوقفت بين أيديهم وقالت: «أتسمحون لفتاة أن تقول كلمة فى مصلحة المسلمين؟»، قال على: «تكلمى يابنية». فقالت: «يامعشر المهاجرين وخيرة أصحاب الرسول إنكم إذا أردتم بأمير المؤمنين شراً، فإنه برىء لا يستوجب قتلاً أو خلعاً». فأصغى الجميع وهم معجبون لتلك الجرأة من فتاة حديثة السن ولبثوا صامتين يسمعون ما تقول. فقالت: «أما إذا شئتم إخماد الفتنة فاقضوا على أصل الشر. اقتلوا مروان بن الحكم فإنه سبب ذلك البلاء العظيم». فبهت الجميع لفصاحة أسماء وجسارتها. فالتفت على إليهم وقال: «هذا والله ما أراه ياأصحاب رسول الله، إن عثمان برىء ولولا ابن عمه لانتهت الفتنة»، فقال طلحة: «ولكننا لم نأل جهداً فى إسداء النصيحة ليرجع عن مشورة ابن عمه وهو يصغى إليه ويعمل بقوله، أما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين؟»، فقال على: «وما أدراكم أن كلامه لم يكن من عند نفسه، ولقد نصحت الخليفة مراراً وخرجت من مجلسه فى آخر مرة وقد عاهدت نفسى على ألا أتوسط فى أمره. ولكنى لما علمت بمنع الماء عنه ذهبت إلى محاصريه وهم وقوف ببابه ووبختهم وقلت لهم: إن هذا العمل لا يليق بالمؤمنين ولا الكافرين وإنما الأسير عند فارس والروم يطعم ويسقى فلم ألق منهم مصغياً»، ثم وجه كلامه إلى أسماء وقال: «حتى أم حبيبة

زوج رسول الله ركبت إليه بغلتها وحملت وعاء فيه الماء وتظاهرت أنها تريد أن تقابله وتكلمه عن قضايا أموال أيتام وأرامل بنى أمية، فقالوا لها: «لا والله»، فضربوا بغلتها فنفرت وكادت تسقط عنها، فذهب بها الناس إلى بيتها». ثم نظر على من حوله ونادى الحسن والحسين ابنيه فجاءا، فقال: «إذهبا إلى بيت أمير المؤمنين ودافعا عنه بسلاحيكما وأرجعا الناس عن بابه، وأنت ياطلحة أرسل ابنك وأنت يازبير أرسل ابنك أيضا». فنادى كل منهما على ابنه. ثم قال على: «وأين محمد؟»، فقالوا: «وأى محمد تعنى»؟ قال: «محمد بن أبى بكر.. أين هو؟»، فجعلوا يتساءلون عن مكانه فلم يعثر عليه أحد فبدا على علىّ الضجر ثم قال: «إنى والله خائف مما فى نفس محمد على الخليفة». فعلمت أسماء أن محمدا حاقد على الخليفة لأنه أرجعه عن ولاية مصر.

العقد المزور

أما نائلة فمكثت فى البيت بعد ذهاب أسماء وهى على أحر من الجمر وقد أسدل الليل نقابه، فجلست فى غرفتها تنتظر عودتها ثم خطر لها أن تسير إلى زوجها تستطلع حاله، فخرجت إلى الدار وتحولت إلى غرفته، فرأت مروان خارجاً من عنده فاستعاذت بالله من رؤيته. أما هو فاعترضها قائلاً: «لا تدخلى على الخليفة لأنه فى شغل، ارجعى إلى غرفتك». فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت غرفتها فدخل معها ونظر فى جوانب الغرفة فلم ير أسماء فقال: «وأين هى اسماء»؟، قالت: «إنها آتية». قال: «لعلها خرجت من هذه الدار؟»، قالت: «لا.. ولكنها مشغولة فى أمر ولا تلبث أن تعود

فأخبرنى ما بال الخليفة وما الذى شغله الآن؟»، قال: «لم يشغله شيء ولكنه يصلى منفرداً والقرآن بين يديه»، ثم تركها وخرج. ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجاً فى صحن الدار فأطلت من خلال الباب، فرأت جماعة داخلين وفيهم الحسن والحسين وأبناء الصحابة، وما لبثت أن سمعت الحسن يخاطب أهل المنزل ويطيب خاطرهم وهو يقول: «لا تخافوا، إننا جئنا للدفاع عن الخليفة». وبعد وهلة رأت أسماء داخلة فاستقبلتها باسمة واستطلعتها الخبر فطمأنتها وقالت: «إن الصحابة أرسلوا أبناءهم للدفاع عن الخليفة ورد الناس عن بابه». فسرت نائلة وهدأ روعها، وصممت على الدخول إلى الخليفة فإذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ ويصلى ولا يلتفت يميناً ولايساراً، فدنت منه بخفة فتنبه لها فقال: «ما الذى جاء بك يانائلة»؟ قالت: «إنما جئت أتفقد أمير المؤمنين وأطمئنه أن فى الدار الحسن والحسين وسائر أبناء الصحابة وقد جاءوا بعدتهم يدفعون الناس عن بابنا». فقال وهو لا يزال ينظر فى صفحات القرآن: «لا حاجة بى إلى الدفاع ولا أريد أن تهرق بسببى قطرة من الدم». قال ذلك وعاد إلى القراءة، فعجبت نائلة لذلك وعادت إلى غرفتها، وبات أبناء الصحابة سهارى تارة يهددون الواقفين عند الباب، وطورا يتوعدونهم، وكل أهل القصر فى اضطراب وقلق إلا عثمان فإنه قضى ليلته يقرأ القرآن ويصلى.. وفى الصباح استيقظت أسماء على صوت مروان فى غرفتها ونائلة جالسة إلى جانبها، فجلست فى السرير فاستعاذت بالله فقال لها مروان: «ما الذى دفعك للخروج من هذه الدار؟»، فقالت: «وما

شأنك فى خروجى أو دخولى» ؟ قال: «كيف لا ؟.. وأنت امرأتى وقد كتب كتابك على». وغضبت أسماء وصاحت: «إنى لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك، دع عنك هذا الهذيان يانذل الرجال».

فمد مروان يده إلى جيبه واستخرج ورقة عليها كتابة وقال: «أليس هذا كتاب العقد وعليه خاتم الخليفة» ؟ فنظرت أسماء ونائلة فرأتا الخاتم فبهتتا. ولكن أسماء تبسمت وهى لا تعبأ بتهديده وقالت: «قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على لسان أمير المؤمنين. إن هذا البلاء كله من تزوير ذلك الكتاب على لسان الخليفة إلى والى مصر. وكان الناس قد عادوا إلى بلادهم فأرجعتهم وأيقظت الفتنة.. فضع هذا الكتاب فى جيبك، وأخرج من هذه الغرفة»، سمع مروان ضجة عظيمة فى صحن الدار وصوتاً ينادى : مروان، مروان، فخرج مسرعاً.

مقتل عثمان

ثم رأت نائلة وأسماء الدخان يتصاعد من جهة باب الدار فظنتا أن النار قد اشتعلت فيها، فهاجوا وماجوا فصاحت نائلة: «ويلاه قد أحرقونا وقتلونا».. وهرولت مسرعة إلى غرفة زوجها. أما أسماء فأطلت من نافذة الغرفة فرأت الناس قد تجمهروا عند باب الدار وعددهم يزيد على الألف، وأخذوا يرمون الدار بالنبال. ورأت بعضهم قد فتحوا الأبواب وهجموا يريدون الدخول منها وأبناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدافعونهم، وآخرون قد أوقدوا النار فى السقف فوق الباب ليحرقوا الدار، وسمعت الجماهير يصيحون بصوت واحد: «ادفعوا إلينا مروان فنقتله وكفى». فاضطربت

أسماء، وسارت نحو غرفة عثمان لعلها تقنعه بتسليم مروان فينجو هو، فرأت الدار ملأى بالناس وقد دخل معظمهم من جهة دار بنى حزم ورأت مروان فى بيتهم وبيده السيف يريد أن يدفعهم، فهجم عليه أحدهم وضربه بالسيف على عنقه فدار ثم وقع. فصاحت أسماء: «بورك فيك إذ قتلته فإنه أصل الشر كله». ولكن الضربة لم تكن قاضية فعاش مروان بعد ذلك ولكن أسماء ظنته مات فتركته وسارت بين الجماهير إلى غرفة الخليفة، فرأته جالساً والقرآن بين يديه وعنده نائلة واقفة والدموع ملء عينيها. وعندئذ دخل الحسن والحسين وأولاد الصحابة وفى أيديهم السيوف، ولما سمع عثمان بدفاعهم عند باب داره خاف عليهم فبعث يستدعيهم ليردهم عن ذلك فقال: «أغمدوا السيوف وارجعوا فإن الله قد عهد إلىّ وأنا صابر عليه». ثم وجه خطابه إلى الحسن قائلاً: «ارجع يابنى إن أباك الآن فى شغل عظيم من أمرك». أما الحسين وسائر أبناء الصحابة فلم يصغوا لقوله فعادوا للدفاع عن الخليفة، وظل هو جالساً على مقعده يقرأ ولا يبالى بالغوغاء وليس فى الغرفة إلا نائلة وكانت أسماء واقفة هناك وقلبها يخفق خوفاً عليه فما لبثت أن رأت رجلاً من قريش دخل عليه وقال له «اخلعها (أى الخلافة) وندعك». قال عثمان: «لست خالعاً». ثم ما لبثت أن رأت محمد بن أبى بكر دخل مسرعاً ووراءه جماعة، ولم ينتبه لها، فخافت أن يفتك محمد بالخليفة فيكون ذلك نقطة سوداء فى تاريخه. فدنت منه وأشارت إليه أن يكف عما هو فيه وأن يتبعها حالاً. فلما خرج يسأل أسماء عما تريده. قالت: «وأنت أيضاً على عثمان». وأخبرته

أنه برىء مما ينسبونه إليه.. ثم رأت رجلاً ممن دخلوا مع محمد بن أبى بكر هم بعثمان وبيده حديدة ضربه بها على رأسه، فسال دمه على المصحف فتبعه آخر ليضربه بالسيف فحالت نائلة لتفديه وتلقت السيف بيدها فقطع أصابعها. فثارت الحمية فى رأس أسماء فهجمت بخنجرها تريد قتل الرجل.. فأمسك بها محمد، ولم تمض لحظات قليلة حتى قتل عثمان وفر قاتلوه. فلما رأته نائلة مقتولاً حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت من الغرفة وهى تبكى، ونادت الحسن والحسين فدخلا. فرأيا عثمان مذبوحاً يتخبط فى دمه فصاحا: «كيف يقتل عثمان ونحن فى داره؟ ما الذى نقوله لوالدنا إذا سألنا عن ذلك؟».

محمد وأسماء

أما محمد فأمسك بيد أسماء وقال: «اتبعينى»، فتبعته حتى خرج بها من الدار وهى تود البقاء لترى ما يكون من حال نائلة ولكنها رافقت محمدا تلبية لنداء قلبها ثم قالت: «إلى أين نحن ذاهبون يامحمد»؟ قال: «هل ترين لك مأربا فى دار عثمان بعد؟ لقد نصحتك أن تخرجى منه منذ أيام فلم تقبلى حتى شهدت قتله بعينك»، قالت: «إنكم ظلمتموه يامحمد.. تباً لمروان إنه أصل هذا البلاء». فقال محمد: «دعينا من الظلم والعدل فقد قتل عثمان ولم يعد بقاؤك فى داره ممكناً والناس قد دخلوها وهموا بنهبها.. إن الوقت ضيق ولا أستطيع البقاء معك إلا قليلاً». قالت: «وماذا تريد منى ؟»، فابتسم وقال: «ألا تعلمين ما الذى أريده». قالت: «نفسى تحدثنى».. وسكتت. قال: «أرجو أن يحدثك قلبك لا نفسك»،

قالت: «يظهر لى مقتل عثمان لا يهمك وقد فارقناه والدم يتدفق من عنقه»، فتنهد محمد وقال: «أتظنيننى غير آسف لموته ؟»، قالت: «لا أظنك آسفاً»، قال: «أراك توبخيننى وما هذا وقت التوبيخ، ولو شرحت لك أصل هذه الفتنة لطال بنا المقام ولكننى سوف أبسط لك الحقيقة، وأما الآن فإنى مسرع إلى منزل على لأنى أتوقع خلافاً عظيماً يقع بين الصحابة ولابد لى من حضور مجلسهم. وأما أنت فلا أرى أن تقيمى هنا والحال فى اضطراب». قالت: «إلى أين أذهب وأمتعتى وجوادى لا تزال فى دار عثمان»؟ قال: «أنا ضامن إحضارها لك، ولكنى أريد أن أعرف مافى ضميرك.. هل فهمت مرادى ؟»، قالت: «وما مرادك»؟ قال: «أقول لك فى إيجاز إنى أحبك، فهل تحبيننى ؟»، فعلت وجهها حمرة الخجل ولم تجب.. قال: «بهذا الخجل أثق بحبك. فاعلمى ياأسماء أنى عازم أن أريحك من أتعابك وأخلصك من الذى يدعى أنه والدك. وقد تركك منذ أيام ولا أظنك تعلمين أين هو. وأما مروان فقد نال نصيبه.. ولا أظنه قتل وقد تركته فى الدار يعصب عنقه على أثر جرح أصابه. وها أنا ذاهب إلى بيت علىّ وهو الذى سيتولى الخلافة لأنه أحق بها من الجميع. ولكنى لا أظنه ينالها إلا بعد خلاف عظيم، أرى أن أذهب بك إلى مأمن تبقين فيه حتى تهدأ الأحوال فنعيش معاً بإذن الله.. ألا ترين ذلك»؟ فأطرقت أسماء فظلت برهة صامتة يمنعها الحياء من الكلام.

فأدرك محمد أنها تكتم حبه فقال لها: «قد فهمت مرادك ياأسماء، وفى نيتى أن أذهب بك الآن إلى واحدة من ذوى

قرابتى فى أطراف المدينة، تقيمين عندها حتى تنقضى الأزمة، ويبايع علىّ بالخلافة.. فيرجع الأمر إلينا ويعود السلطان إلى قبضتنا فنقيم فى هناء بإذن الله». قال ذلك ومشى، فمشت صامتة لا تتكلم حتى انتهى إلى منزل فى أطراف المدينة وإذا بامرأة عجوز لم تكد ترى محمدا حتى استقبلته وقبلته ورحبت به. فقال لها: «لقد جئتك بأعز شىء عندى أرجو أن تحتفظى به».

دفن عثمان

أحست أسماء بالوحشة فدخلت غرفة لتخلو بنفسها، ولم تكد تفعل ذلك حتى تصورت عثمان مطروحاً على الأرض ونائلة واقفة فوق رأسه تلطم وتندب زوجها ، فندمت لأنها تركت نائلة فى تلك المحنة. دخلت الفراش لتنام فلم يغمض جفناها.. فقضت ليلتها تفكر فى محمد تارة، وتارة أخرى فى والدها، وآونة فى عثمان ونائلة، حتى مضى الليل فغلبها النعاس فنامت، ثم استيقظت وضميرها يؤنبها لأنها هجرت صديقتها نائلة. فعزمت على المسير إلى دار عثمان لترى ماكان من أمر نائلة، لكنها تذكرت أن محمداً أوصى العجوز بالاحتفاظ بها، فخافت إن هى أرادت الخروج أن تمنعها، فقضت ذلك النهار قلقة مضطربة، وهى تتردد بين الذهاب والبقاء حتى جاء المساء، اشتد بها القلق ولم تعد تستطيع صبراً فنهضت ولبست ثيابها وتقلدت الخنجر كعادتها، وانطلقت على عجل قاصدة دار عثمان، ولم تكد تمشى حتى رأت أشباحاً عرفت أنهم من أمية يهرعون بين راكب وماش فراراً من المدينة كأن جيشاً

يطاردهم. فسارت إلى جانب الجدران خشية أن يكون معهم مروان فيعرفها. ولما مروا استأنفت المسير. وكان الفجر قد دنا وطلع الشفق، فتحولت نحو سور المدينة إلى أرض مهجورة. ولم تكد تدرك المكان حتى رأت بضعة عشر رجلاً مهرولين، وفيهم أناس يحملون لوحاً عليه شىء. فتنحت جانباً، واستترت بنخلة حيث ترى المارة ولا يرونها. فلما دنوا منها عرفت منهم أناساً فى جملتهم مروان وعبدالله بن الزبير وكانت قد رأته فى جملة من جاء للدفاع عن عثمان من أبناء الصحابة. فلما رأت مروان أخذت فى الانزواء وتطلعت إلى ما يحملونه، فإذا هو جثة مطروحة على باب وجمجمتها عارية، ورأت تحت الجمجمة لحية كثيفة عرفت أنها لحية عثمان. وتأملت الثياب فإذا هى ثيابه ولا يزال الدم عليها فلم تشك أن الجثة جثته. فخفق قلبها وارتعدت فرائصها لما لحق بالخليفة من الإهانة بعد موته. وأدركت أنهم خرجوا ليلاً، فرأتهم لما وصلوا إلى حائط يقال له «حش كوكب» حفروا حفرة دفنوه فيها وهم ينظرون إلى ما وراءهم خوفاً ورهبة. فصبرت ريثما تفرقوا وسارت إلي المدينة تخترق أسواقها فلم تجد فيها إلا نفراً قليلاً، وما إن وصلت منزل عثمان حتى طلعت الشمس فرأته موصداً فالتمست باب بنى حزم فرأته مغلقاً ، ولم تسمع صوتاً ، فوقفت برهة ثم قرعت الباب فلم يجبها أحد، فأعادت القرع فأطل رجل من كوة فوق الباب عرفت أنه من خدم عثمان وعرفها هو. فأشارت إليه أن يفتح، ففتح ودخلت ثم سألته عن نائلة فأشار إليها ألا تتكلم وسار أمامها ،

فتبعته، فدخل بها غرفة فيها نسوة أحطن بنائلة.

قميص عثمان وأصابع نائلة

ووقع نظر نائلة عليها فصاحت بها قائلة: «ما الذى جاء بك ياأسماء ياحبيبتى؟ أظنك أتيت لترى أمير المؤمنين. فقد فاتك ما لاقاه من إكرام المسلمين بعد موته». قالت ذلك واستغرقت فى البكاء.. أما أسماء فألقت بنفسها على نائلة وقد انخرطت فى البكاء والشهيق. فلطمت نائلة خديها بكفيها فرأت أسماء إحدى يديها معصوبة فتذكرت أنها اليد التى أصيبت بالسيف فقطعت أناملها. وقالت نائلة: «لقد خدعونا والله وغدروا بنا فأرسلوا أولادهم للدفاع عنه وبعثوا يقتلونه بواسطة آخرين.. ألم ترى ابن أبى بكر وقد قبض على لحيته رحمه الله». فلما سمعت اسم محمد تأسفت لأنه فعل ذلك ولم تجد ما تدافع به عنه. فصاحت نائلة: «قد قتلوا عثمان قتلاً لم نسمع بمثله. فقد طعنوه فى صدره ثلاث طعنات وضربوه على الجبين ضربة حطمت العظم. والله إنى لا أزال أسمع صوته يرن فى أذنى وهو يقرأ القرآن ولا يبالى بما يفعلون به. فقتلوه رحمة الله عليه فى بيته وعلى فراشه». ثم تنهدت تنهيداً عميقاً وقالت: «ولو اكتفوا بذلك لكان خيراً ولكنهم منعوا الناس من أن يصلوا عليه، وقالوا لا يدفن فى مدافن المسلمين كأنه كفر أو كان من المشركين. جزاهم الله بما فعلوا. وظلت جثته فى بيتنا ثلاثة أيام ملقاة بين أيدينا ونحن نبكيه ونبكى الإسلام من بعده». وأما والدك المسكين فقد قتل مع الخليفة فى أحد جوانب الدار». فلطمت أسماء وجهها. وأوغلت فى البكاء. فقالت

لها نائلة: «تصبرى يا ابنتى وسينتقم الله من القوم الظالمين، وهناك من سيطالبون بثأره إذا رأوا قميصه الملوث بالدم وأصبعى المقطوعة. فقد أرسلت القميص والأصابع إلى معاوية فى الشام وأصبح الأمر لبنى أمية وهم سواد قريش، وقد ظن بنو هاشم أنهم إذا قتلوا عثمان يضعف شأن بنى أمية، ووالله إنهم أكثر رجالاً وأوفر عدة وأصعب مراسا، وسوف يلقى بنو هاشم عاقبة ما جنته أيديهم إن شاء الله». فلما سمعت أسماء تهديد نائلة، علمت أنها إنما أرسلت الأصابع والقميص لتؤجج الحقد فى قلوب بنى أمية وتدفعهم إلى المطالبة بدم عثمان، وتحققت أنها تضمر السوء لعلى، فلم تصبر عن الدفاع عنه فقالت: «ولكنك تعلمين أن بنى هاشم كانوا أكثر الناس دفاعاً عنه فان عليا أرسل ابنيه الحسن والحسين لرد الناس عن بابه، ولو أذن لهما أمير المؤمنين رحمه الله بالقتال لجاهدا فى الدفاع عنه إلى آخر نسمة من حياتهما». قالت: «وأى دفاع تريدين؟.. فوالله لو أرادوا دفاعاً ما مات عثمان». فعذرتها أسماء لهياج عواطفها وقالت: «ما الذى عزمت عليه ياخالة؟»، قالت: «لقد عزمت على أن أبرح هذا المكان إلى حيث لا أرى هاشمياً ولا أسمع بهاشمى». ثم تذكرت أسماء أنها تركت بيت العجوز على حين غفلة منها فخافت إن هى افتقدتها ولم تراها أن تقلق عليها ولاسيما إذا عاد محمد فلم يجدها، فنهضت للحال واعتذرت بأنها تريد بعض ذوى قرابتها فى أطراف المدينة. فقالت لها نائلة: «اذهبى حيث شئت ياابنتى ولو كان لى بيت لدعوتك إليه ولكننى أصبحت غريبة بين أهلى أتوقع الخطر على حياتى. سيرى ياابنتى

فى رعاية الله».

بيت على

وخرجت أسماء تلتمس بيت العجوز فوصلته فى آخر النهار، وقد مالت الشمس إلى المغيب فوجدت الباب مغلقاً، ولا نور هناك ولا حركة فقرعته مراراً فلم يجبها أحد فوقفت برهة تفكر فيما تفعله، فلم تر خيراً من الذهاب إلى منزل على تتفقد محمداً، فإذا لم تجده باتت تلك الليلة هناك، فلطالما دعاها للإقامة فى منزله. ولكنها خافت إذا سارت بلباس النساء أن تجذب إليها الأنظار فى الطريق، ففضلت التنكر، فلفت رأسها بكوفية، ولبست عباءة كانت قد خرجت بها أمس، وسارت تلتمس بيت على فلم تصله إلا عند العشاء. فرأت نفراً قليلين فى فناء الدار، وكانت تتوقع أن ترى ازدحاماً، ثم علمت أن أهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدحم بهم المدينة قبل مقتل عثمان تحولوا إلى خارج المدينة للمبيت. فسألت عن على فقيل فى خلوة مع بعض الأمراء لا يدخل عليه أحد، فوقفت تفكر فى الأمر، فحدثتها نفسها أن تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء على، ولكنها هابت الدخول عليهن وهى لم تتعرف عليهن من قبل. وبينما هى فى ذلك رأت محمد بن أبى بكر خارجاً من الدار فتبعته.. فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها. فدنا منها وتفرس فيها فقالت: «محمد؟»، قال: «أسماء؟». قالت: «نعم أين أنت»؟.. قال: «لقد شغلت لغيابك.. أين كنت؟»، قالت: «خرجت فى حاجة سأقصها عليك الآن.. وأين هى عجوزك؟»، قال: «جاءت فى صباح اليوم وهى قلقة لغيابك،

وقد قضينا طول النهار فى البحث عنك. تعالى معى أدخلك إلى والدتى». قالت: «هل تقيم والدتك فى منزل على»؟ قال: «نعم وهى زوجته بعد والدى رحمه الله واسمها مثل اسمك بورك فى هذا الاسم»، فقالت: «وهل تزوجها على من زمن بعيد؟»، قال: «تزوجها بعد موت والدى وكنت أنا طفلاً فربيت فى حجره فهو بمنزلة والدى وهو يحبنى كأولاده تماماً». ثم تبادر إلى محمد أن أسماء على شىء من الفتور فقال: «أراك قد تغيرت ياأسماء بعد خروجك اليوم». قالت: «بل أنا باقية على ما تعلم ولكنك سألتنى عن سبب خروجى»... قال: «نعم.. نعم وأين كان خروجك»؟ قالت: «خرجت إلى تلك المسكينة التى قتلتم زوجها وتركتموها حزينة كئيبة»، قال: «لعلك سرت إلى نائلة؟»، قالت: «نعم سرت إليها ورأيت مدفن قتيلكم رحمه الله. فقد حملوه على باب وساروا به خلسة ليدفنوه خارج المدينة، وسمعت طعناً عليك ساءنى أن أسمعه، وفوق ذلك ألا أستطيع الدفاع عنك، لأنى شهدت دخولك وتعمدك قتل الخليفة». فأدرك محمد أن اعتقادها هذا سيكون نقطة سوداء فى تاريخ حبها، فساءه ذلك، فقال وهو يبتسم تأكيداً لبراءته: «لقد قلت لك ياأسماء إن الرجل لم يقتل ظلماً، وهبى أنى قتلته بيدى فما أنا نادم على ذلك، وسأطلعك على الحقيقة فى فرصة أخرى.. أما الآن فادخلى بنا لأعرفك بوالدتى، وهى تعرفك بأهل على»، قال ذلك وهم بالدخول.

الحسن بن على

ولم يكد يدنو من الباب حتى سمع وقع أقدام فى الدار ثم رأى

شاباً خارجاً، هو الحسن بن على فألقى الحسن السلام. فرد محمد قائلاً: «وعليك السلام ياأبن أمير المؤمنين». فقال الحسن: «أراك تبشرنى بخلافة أنا خائف منها». قال: «لا تخف ياابن بنت الرسول وابن عم النبى، إنك أولى الناس بها».. وكان الحسن يخاطب محمدا وينظر إلى أسماء وقد احتفظت بلباسها وهى مازالت ملثمة. فابتدره محمد قائلاً: «لأن رفيقى جاء للمبيت عندكم فهل تقبلونه؟»، قال: «أهلا به أيا كان، فليدخل». قال ذلك ودخل، فدخلا فى أثره وأسماء لاتزال ملثمة والحسن ينظر إليها ويتوقع حسر اللثام. فلما حسرته ووقع نظره عليها تذكر أنه رآها فى منزل عثمان، وقد كانت حاضرة ساعة مقتله. فوقعت من نفسه موقعا حسنا ، وأعجبه هيبتها وجمالها. فلما نظرت إليه أسماء غلب عليها الحياء فأطرقت وقالت: «بورك فى بيت شرفه الله». فقال محمد للحسن: «وأزيدك تعريفاً بها أنها أسماء بنت يزيد التى جاءت منذ بضعة أسابيع تستدعى مولاى أبا الحسن لمشاهدة والدتها وهى على فراش الموت، لسر كانت عازمة على إطلاعه عليه، فقضت – رحمها الله – قبل أن يصل إليها فذهب السر معها إلى القبر». قال الحسن وهو ينظر إلى أسماء: «إن والدى مازال يذكر ذلك ويأسف لضياع السر، ويعجب بما آنسه فى هذه الفتاة من الهمة والأنفة». ثم سار أمامهما فمشيا فى أثره وقد شعر محمد من ذلك الحين بغيرة مبعثها الحب، وندم على مجيئه بها إلى هذا المكان، ولكنه تجاهل الأمر وقال له: «أين نحن ذاهبون؟»، قال الحسن: «إلى خالتى أمامة أعرفها بأسماء، فتبيت عندها الليلة

وهى تعرفها بالاسم قبل اليوم».. فلم يستطع محمد معارضته لئلا تنكشف غيرته. ودخل الحسن إلى غرفة أمامة بلا استئذان. وكانت منفردة وقد لبست ثوباً بسيطاً. فلما رأت الحسن داخلا أرادت أن تسأله عن أمر الناس والخلافة، فإذا هى بأسماء تتبعه فلما رأتها أعجبها حسن طلعتها، فدنت أسماء منها تهم بتقبيل يدها فمنعتها وقبلتها، فبادرها الحسن قائلا: «هذه ياخالة أسماء وأظنك تذكرين حديث والدى عن والدتها التى ماتت فى قباء ومات ذلك السر معها، فهذه هى ابنتها وكثيراً ما سمعت والدى يذكرها ويعجب بها». ثم التفت إلى أسماء وقال: «اعلمى أنك بين يدى أمامة زوج والدى، وهى بنت زينب بنت رسول الله وكان جدى يحبها كثيرا وانظرى إلى القلادة التى تزينها فى عنقها قد أهداها إليها رسول الله يوم ولادتها وكانت أحب أهله إليه». فازدادت أسماء إجلالا لأمامة وظلت واقفة حتى دعتها إلى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها.. فقال الحسن: «لا حاجة بى أن أوصيك بضيفتك».. وخرج وكان محمد فى انتظاره وكان مازال قلقاً وقد لام نفسه على مجيئه بها، فلما التقيا قال الحسن: «كيف عرفت هذه الفتاة يامحمد؟».

خلافة على

فأدرك محمد مافى نفس الحسن، فاتقدت نار الغيرة فى صدره، وأراد تغيير الحديث فقال: «وأين مولاى أبو الحسن الآن؟»، قال الحسن: «تركته فى غرفة وقد اجتمع الأمراء حوله يريدون مبايعته وهو يقول لهم: لا حاجة لى فى أمركم، فمن اخترتموه رضيته.

وهم يلحون عليه فى القبول، ويقولون له: لا نعرف أحداً أحق بها منك ولا أقرب قرابة من رسول الله». فقال محمد: «ألم يقبل ؟»، قال الحسن: «كلا وقد تركته وهو يقول لهم: فإنى أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً».

قال محمد: «وما رأى طلحة والزبير، فإنى أخالهما غير راضيين به لأن كليهما يطمع فى الخلافة لنفسه». فتبسم الحسن وقال: «لا يهمك طمعهما فإنهما سيبايعان كارهين إن شاء الله على أنى أراهما يتظاهران بالقبول». ثم افترقا فسار محمد إلى فراشه وقد أهمه أمر أسماء أكثر مما شغله أمر الخلافة فهو يعلم أن الحسن إذا حدث والده فى أمر زواجه منها نالها لا محالة، فلابد - إذن - من إبعادها عن ذلك المنزل. وفى الصباح التالى بكر إلى غرفة الحسن فلم يجده هناك فسأل الخدم عنه فقالوا له: «خرج إلى غرفة أمامة باكراً». فعلم أنه ذهب ليقابل أسماء فأسرع فى إرسال من يستقدمه، فجاء الحسن وقد أشرق وجهه فانقبضت نفس محمد وكادت الغيرة تظهر على وجهه ولكنه كتم أمره، ثم حياه قائلاً: «كيف أصبحت فتاتنا اليوم؟»، فقال الحسن: «لقد أصبحت فى خير ولكننى أراها منقبضة النفس». فسر محمد لانقباضها لعلمه أن ذلك يدل على عدم ارتياحها إلى محبة الحسن. فقال محمد: «أرى أن نخرج بها لتحضر مجلس والدك وحديث القوم فى أمر المبايعة لعلها تشغل بما تراه».. قال: «وكيف تجلس مع الرجال؟»، قال: «لتذهب متنكرة كما أتت بالأمس». فقال: «إنك على حق». وتحول لاستقدامها ثم

عاد وأسماء معه متنكرة. فلما رآها محمد حياها، وقال لها: «أظنك تودين حضور مجلس مولاى أبى الحسن». قالت: «كيف لا وأنت تعلم ما يجول فى خاطرى»! فقال الحسن: «هلم بنا ندخل على والدى قبل مجىء الناس».

الصحابة وعلى والخلافة

ولم تكد أسماء تجلس حتى جاء أحد الخدم يستأذن عليا فى دخول بعض الصحابة، فأذن لهم فدخل جماعة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير، فجلسوا جميعاً حتى غصت القاعة بهم، وجلس طلحة والزبير فى صدر القوم وعلى وجهيهما آثار الانقباض كأنهما يخفيان أمراً مهماً، فلما استقر القوم نهض واحد من أهل المدينة وخاطب عليا قائلاً: «لقد جئنا على بن أبى طالب نطلب منه أمراً نرجو ألا يردنا عنه كما فعل بالأمس». فقال على: «قولوا ما تريدون». قالوا: «جئنا نبايعك على الخلافة لأننا لا نرى أحداً أحق بها منك».. قال: «قلت لكم دعونى والتمسوا غيرى». فوقفوا وقد نفد صبرهم وقالوا: «ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟»، فلما سمع على تأنيبهم سكت، ثم نظر إليهم قائلاً: «قد أجبتكم». بمعنى أنه وافق على طلبهم. ولم يكد ينطق بلفظ الإجابة حتى ضج الناس بالاستحسان وتهللت وجوههم فرحاً إلا طلحة والزبير فإنهما كانا صامتين، تطلب على أن تكون المبايعة فى المسجد.

المبايعة

فنهضوا ونهض على حتى أقبل على المسجد والناس يتبعونه،

وكان محمد والحسن وأسماء سائرين بالقرب منه وأسماء تنظر إلى ما سيكون. فلما دخلوا المسجد قرأ على الفاتحة وصلى، ثم وقف ووقف الناس، فنظرت أسماء إلى الجمع وقد هاجوا وماجوا فرأت طلحة تقدم نحوه قبل الجميع ومد يده فمد على يده فصافحه طلحة وقال: «إنا نبايع سيدنا ومولانا الإمام على بن أبى طالب، على كتاب الله وسنة نبيه، ونسلم له النظر فى أمورنا وأمور المسلمين لا ننازعه فى شىء ونطيعه فيما يكلفنا به من الأمر، وألا خليفة سواه». وأدركت أسماء من هيئة طلحة أنه إنما بايع مكرها. وبعد أن بايع طلحة تنحى وتقدم الزبير، ثم بايع غيره من الأمراء أفرادا وجماعات فأصبح على من تلك الساعة أمير المؤمنين.

الفرار من المدينة

أما محمد فكان فى قلق من أمر الحسن وأسماء فلما انتهت المبايعة اغتنم فرصة مسير الحسن مع والده وتجمع الناس حوله لتهنئته، فأشار إلى أسماء فتبعته، وسارت فى أثره حتى وصلا إلى بيت العجوز. فلما خلا بأسماء هناك ابتدرته قائلة: «أرى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يحلو المقام فيها». قال: «وكيف تتركين عليا وأهله؟»، قالت: «مالى ولأهله». فقال: «لقد تمت المبايعة لعلى فهو اليوم أمير المؤمنين وقد استقام الأمر لنا بذلك. أما الآن فأرى أن تقيمى عند أختى عائشة أم المؤمنين». وكانت أسماء قد علمت منه أنها سارت إلى مكة لقضاء مناسك الحج والحصار مضروب على عثمان. فقالت: «هل عادت أم المؤمنين من مكة؟»، قال «لم تعد بعد من مكة بعد أن قتل عثمان

وربما تقيم هناك مدة أخرى». قالت أسماء: «هل أذهب إليها؟»، قال: «أرى أن تذهبى فتقيمى هناك فى مكة»، فإذا عادت أختى عدت معها إلى المدينة». قالت: «إن فى ذهابى إليها شرفاً عظيماً ولكن كيف أسير وحدى؟»، قال: «أرى أن تصحبك هذه الخالة (وأشار إلى العجوز)، وأرسل معكما من يبلغكما الأمان. ومن رأيى أن يكون ذهابك بناء على رغبة منك فى البعد عن القلاقل».. ففهمت أسماء مراده وأدركت أنه يخاف أن يعلم على أو الحسن أنه هو الذى حملها على المسير. فقالت: «بل أنا الراغبة فى المسير إلى هناك لأكون بجوار أم المؤمنين. أين جوادى وأمتعتى؟»، قال: «هى هنا عند هذه الخالة فامكثى عندها إلى الغد فآتى إليك بمن يسير بك إلى مكة». قال ذلك وهم بالخروج، فقالت له أسماء: «ولا يبرح من ذهنك أنى لا أزال أتوقع أن أسمع الخبر اليقين عن مقتل عثمان وتفصيل ما تبرىء به نفسك». قال: «إذا لاقيت أم المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل هو يستوجب القتل وهى تجيبك بما يغنيك عن سؤالى». وتركها محمد ومضى. فباتت هى تلك الليلة وفى الصباح جاء محمد وقد أعد إبلاً وهودجا.

وأمر العجوز فأخذت فى إعداد ما يلزم للسفر.. ولم تمض ساعتان حتى تهيأ كل شىء.

عائشة أم المؤمنين

وقضوا فى سفرتهم هذه ثلاثة أيام أشرفوا فى نهايتها على جبال مكة وعلى بعد ستة أميال من مكة، فرأوا ركبا قد وصل حديثاً

فترجلت أسماء والعجوز تستطلعانه، فعرفتا أنه ركب عائشة أم المؤمنين، فسرت أسماء برجوع عائشة عاجلاً لعلها ترجع معها إلى المدينة فتلتقى بمحمد قريباً. فقالت للعجوز: «وأين هى أم المؤمنين؟»، فالتفتت العجوز يمنة ويسرة حتى وقع بصرها على خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الأحمر عند بابه بدويان واقفان. فقالت: «هذه هى وقد وقف الخدم عند الباب». فقالت: «وهل نذهب إليها الآن؟»، قالت: «تمهلى يظهر أنها على سفر». ثم دنت من قائد جملها فسألته عن سفر أم المؤمنين فقال: «إنها ذاهبة إلى المدينة». فقالت أسماء: «وما العمل الآن؟ هل نرجع معها أم نظل فى طريقنا إلى مكة»؟ قالت: «سنرى متى التقينا بها، وأنها هى التى ترشدنا». فسألتها أسماء: «وهل تعرفينها من قبل؟»، قالت: «أعرفها جيداً وقد عشت فى منزل والدها رحمه الله، وكثيراً ما حملتها على عاتقى وهى طفلة، فإنى أحن إليها حنين الوالدة». قالت: «فلندخل عليها». قالت: «هلم بنا».. فتبعتها أسماء حتى دنت من الخيمة فاستأذنت فى الدخول فأذن لها، فدخلتا وكلتاهما تتهيب الوقوف بين يدى زوج النبى. أما أسماء فكانت على شجاعتها وثبات جأشها قد شعرت عند دخولها الخيمة بخفقان قلبها، وكانت عائشة جالسة على وسادة فى صدر الخيمة. فنظرت أسماء إليها فإذا هى ممتلئة الجسم عيناها تتلألأن صحة وذكاء، فوقها حاجبان متقاربان فيها من الأنفة والهيبة. وقد ارتدت جلباباً من الحرير فوقه نقاب يكسو رأسها فيزيدها جلالا وعظمة واطمأنت أسماء

لمشابهتها محمدا حتى لا يشك الناظر إليها فى أنها أخته، وكانت قد علمت قبل دخولها عليها أنها فى نحو الثالثة والأربعين من عمرها.. فلما رأتها خيل لها أنها دون الثلاثين، لما فى وجهها من إشراق الصحة والجمال فلما دخلتا الخيمة حيتاها وهمت العجوز بتقبيل يدها فمنعتها عائشة وقالت: «أهلاً بك ياخالة». وأمرتها بالجلوس فجلست، وتقدمت أسماء بوقار وحشمة وقبلت يدها ووقفت متأدبة حتى أذنت لها بالجلوس، فجلست مطرقة لا تتكلم لتهيبها ذلك اللقاء. ونظرت عائشة إلى العجوز وابتسمت ثم قالت: «مرحباً بك ياخالة، ما الذى جاء بك إلى هذا المكان؟ كيف فارقت محمداً». قالت: «فارقته فى خير وعافية وقد بعثنى إليك بهذه الفتاة لتقيم عندك وديعة له ريثما يأتى». قالت ذلك وتبسمت. فنظرت عائشة إلى أسماء فأعجبها مافيها من الجمال والهيبة، وأدركت مما علا وجهها من علامات الحياء عند ذكر محمد أنها تحبه.. فقالت لأسماء: «أهلاً بالضيفة العزيزة وديعة أخى فأنت إذن أختى».. ثم قالت عائشة: «أظنكما جئتما لتقيما عندى فى مكة». قالت العجوز: «نعم يامولاتى». قالت: «ولكننى ذاهبة الآن إلى المدينة.. على أن ذلك لا يحول بينكما وبين أن تقيما فى منزلى بمكة ريثما أعود أو إذا شئتما سرتما معى إلى المدينة».. ثم التفتت إلى أسماء وقالت: «ما بالك لا تتكلمين ياأسماء؟»، فرفعت أسماء رأسها وقالت: «لا عجب أن تلعثم لسانى بين يدى أم المؤمنين زوج الرسول». فابتدرتها عائشة بقولها: «ولكنك ستكونين من ذوى قربانا بإذن الله

فلا تتهيبى. أهلا بك ومرحباً».

انقلاب سريع

وسكتت عائشة هنيهة وهى مقطبة الوجه ثم استأنفت الحديث قائلة: «وهل جئتما مع رفاق أم فى قافلة؟»، قالت: «جئنا مع عبيد بن أبى سلمة أحد أخوالك». فلما سمعت عائشة اسمه قالت: «وأين هو؟»، قالت: «هو آت على أثرنا». فلم تصبر عائشة بل نادت واحداً ممن على بابها وأمرته أن يأتى به، فلما دخل هم بتقبيل يد عائشة، فمنعته وقالت: «أهلا بالخال. قل لى كيف فارقت المدينة؟»، قال: «فارقتها وقد قتل عثمان»، فلما سمعت ذلك قطبت حاجبيها وظهر الغضب على وجهها، فتفرست فى عبيد والشر يكاد يتطاير من حدقتيها، وأسماء تراقب ذلك وقد ذهلت لما بدا منها، أما عائشة فلم تصبر على حديثه. فقالت: «ثم ماذا صنعوا؟»، فلم يدهش عبيد لما بدا منها، ولعله كان يتوقعه. فقال: «اجتمعوا على بيعة على». فبهتت عائشة من مجلسها ثم وقفت وأطرقت، ثم رفعت رأسها بغتة وأشارت بيدها إلى السماء ثم إلى الأرض وقالت: «ليت هذه انطبقت على هذه قبل أن يتم الأمر لصاحبك». قالت ذلك وخرجت مسرعة وهى تقول: «ردونى.. ردونى إلى مكة.. قتل عثمان مظلوماً.. والله لأطالبن بدمه»، فبغتت أسماء لما رأت من اهتمام عائشة بالأمر إلى هذا الحد، أما عبيد، فظل ثابت الجأش.. والظاهر أنه كان على بينة مما سيبدو من أم المؤمنين، فأعد لكل خطاب جوابا فاستوقفها قائلاً: «لقد كنت تقولين اقتلوه فقد كفر». فلما سمعت عائشة ذلك حولت وجهها

نحوه وقالت: «إنهم استتابوه ثم قتلوه». قالت ذلك وأمرت رجالها أن يتهيأوا للرجوع إلى مكة. فلما تهيأت عائشة بعثت إلى العجوز وأسماء فركبتا معها وسار الجميع قاصدين البيت الحرام..

المطالبة بدم عثمان

وما كادت عائشة تدخل مكة حتى اجتمع الناس حولها وفى مقدمتهم عبدالله بن عامر الحضرمى عامل عثمان على مكة. وشاهدت أسماء بينهم جماعة من بنى أمية ممن غادروا المدينة بعد مقتل عثمان وليس فيهم مروان. أما عائشة فلم تصبر على ماهموا به من التحية والإجلال فوقفت فيهم وقالت وهم سكوت يصغون لقولها: «أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما». ومضت تحث على الأخذ بالثأر من قتل عثمان وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب فأشارت عائشة إلى الناس أن ينصرفوا، فتفرقوا وخرجت هى إلى منزلها، وسارت أسماء فى أثرها وقد نفد صبرها، فقد أذهلها ما رأت فى ذلك اليوم وقد عزمت على أن تغتنم أول فرصة كى تسأل عن سبب ذلك. ووصل الجميع إلى منزل عائشة فى العشاء، فقدمت لهم الطعام ولم تتجرأ العجوز ولا أسماء على مجالسة عائشة فى تلك الليلة، فباتا فى إحدى غرف المنزل، وأسماء تنتظر الغد لتقابل عائشة وتستطلعها الحقيقة. فلما أصبح الصبح سمعتا قارعا يقرع الباب وجارية تنادى فنهضت العجوز وفتحت الباب فدخلت الجارية وإذا هى حبشية،

فحيتها ثم قالت: «إن مولاتى أم المؤمنين تدعوكما إلى غرفتها».

الإمام على ومقتل عثمان

سرت أسماء لهذه الدعوة على أمل أن تتمكن من استطلاع شىء، فنهضتا ودخلتا عليها، فإذا هى جالسة وقد خلعت الجلباب، فبانت أثوابها الزاهية فزادتها رونقا وبهاء. على أنها كانت لاتزال مقطبة الوجه. فلما دخلتا قبلتا يديها وجلستا بمقربة منها على وسائد من الحرير فمكثت برهة لا تتكلم، ثم قالت وهى توجه خطابها إلى العجوز: «كيف قتلوا عثمان ياخالة؟»، فسكتت العجوز برهة ثم قالت: «لا أظننى قادرة على وصف تلك الكارثة كما تصفها أسماء، وقد شهدت القتل بنفسها لأنها كانت فى داره ساعة مقتله». فحولت عائشة نظرها إلى أسماء باهتمام وقالت: «هل كنت فى الدار ساعة القتل»؟ قالت: «نعم يامولاتى».. قالت: «وكيف كان ذلك»؟ فشق على أسماء أن تصف الحادث كما وقع لأنه يمس محمداً، ولكنها لم تر بدا من الجواب فقالت: «إنهم استتابوه، فتاب ثم رجع ولقد نصح له على أن يصم أذنيه عن سماع مشورة ابن عمه مروان، فلم يصغ لحديثه فعاد إلى ماكان عليه، وعلم الثائرون ذلك فطلبوا منه أن يسلمهم مروان فأبى فهموا بمنزله ودخلوا عنوة وقتلوه». قالت: «ومن قتله؟»، قالت: «اثنان لا أعرفهما ولكنهما من صعاليك العرب ليس أحد منهما من الصحابة أو أولادهم». فتأوهت عائشة وقائلة: «وكيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة، وكبار الصحابة ينظرون ولا يحركون ساكناً ولا يدافعون عنه بسيف أو لسان؟»، فلم تر أسماء بدا من

الدفاع فقالت: «إنهم يامولاتى قد دافعوا عنه جهدهم، وأعلم أن عليا أرسل ابنيه الحسن والحسين إلى دار الخليفة وكذلك فعل سائر الصحابة، رأيتهم هناك يدفعون الناس عن بابه حتى تلطخ وجه الحسن بالدم. ولكن الخليفة رحمه الله منعهم من الدفاع واستحلفهم ألا يفعلوا». فتبسمت عائشة ابتساما يشف عن استخفاف بحديث أسماء، وقالت: «أتصدقين أن عليا لو أراد أن يدفع الناس عن عثمان لم يستطع دفعهم؟»، فابتدرتها أسماء قائلة: «اسمحى لى يامولاتى أن أؤدى شهادة لا أستحى أن أصرح بها أمام الله. إن عليا برىء من دم عثمان بل هو أول ناقم على هذه الفتنة لاعتقاده أنها ستعمل على بعثرة شمل الإسلام»، قالت عائشة: «أراك يابنية تنظرين إلى ظواهر الأمور دون بواطنها أن عليا بما له من النفوذ فى أهل المدينة لو أراد الدفاع عن عثمان لفعل».

ثم هبت عائشة من مجلسها وقالت، وقد أخذ منها الغضب مأخذاً عظيماً: «إن أولئك القتلة قد ارتكبوا إثما عظيما، لا ريب فيه، ولكن معظمهم لا يدركون عاقبة ما يعملون، وإنما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم ورؤساؤهم، فإنك تجهلين أموراً أعلمها ولا أجهل شيئاً تعلمينه».. وسكتت برهة وأسماء مطرقة وقد حارت فى الجواب. فاستأنفت عائشة الحديث فقالت: «ولقد بلغنى أن أخى محمداً كان من جملة المغرورين». ثم خفضت صوتها وقالت: «ولكنه لا يلام لأنه ربيب على». فلما سمعت أسماء ذلك ثارت فى قلبها نار الغيرة، وأرادت الدفاع عن محمد.. وظل الجميع برهة لا تفوه واحدة منهن بكلمة حتى عادت عائشة إلى

الكلام، فنظرت إلى أسماء وقالت وهى تحاول إخفاء غضبها وتهدئة عواطفها: «لا أنكر أن عثمان أخطأ فى بعض أموره ولكنه خطأ يستوجب عليه اللوم والنصيحة لا القتل». فأجابت أسماء: «وهذا ما سمعته من أخيك محمد ولكنه يعتقد أن خطأه أعظم من ذلك كثيرا». قالت وقد سيطر عليها الغضب مرة أخرى: «إن محمدا لا يعرف ما أعرفه، ولو كان هنا لجادلته فى الأمر». ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت إحدى الجوارى وهى تقول: «إن بعض الأمراء بالباب». فلما سمعت أسماء ذلك نهضت واستأذنت فى الانصراف إلى حجرتها.

وأحست أسماء بعد خروجها بقشعريرة شديدة.. ولم تكد تصل حجرتها حتى أصابها البرد، فالتمست الفراش والبرد يتغلغل فى أعضائها، فتبعتها العجوز وأجلستها فى الفراش وجست يدها فإذا هى باردة كالثلج فألقت عليها غطاء ثقيلاً، فسألتها عما تشعر به فقالت: «إننى أحس بارتخاء فى أعضائى، وارتعاش فى كل جوارحى». ثم سكتت وأغمضت جفنيها كأن النوم غلب عليها. واستغرقت فى نوم عميق.

أم الفضل

وفيما كانت العجوز جالسة بالقرب من فراش أسماء، إذ جاءت إحدى الجوارى مسرعة وهى تقول: «إن أم الفضل قادمة لتراك». وبعد هنيهة أقبلت أم الفضل وكانت فى نحو الستين من عمرها فهبت العجوز لتحيتها ثم قبلتها ودخلت الغرفة ودعتها للجلوس على البساط، فقالت أم الفضل وقد التفتت إلى الفراش: «من هو

المريض عندك؟»، ثم قالت: «إنما جئت لأسألك عن مقتل الخليفة رحمه الله، فأخبرينى أولا من هو المريض الذى عندك»؟ قالت: «هى فتاة جئت بها من المدينة بإيعاز من ابن أختك محمد بن أبى بكر لتقيم بضعة أيام عند أم المؤمنين». قالت: «وما علاقة ابن أختى بها؟»، فالتفتت العجوز إلى فراش أسماء وهمست فى أذنها: «إنه ينوى أن يعقد قرانه بها».. وأرادت أم الفضل أن تعرف تفاصيل مقتل عثمان، فإذا بأسماء قد فتحت عينيها. فنهضت العجوز إليها قائلة: «كيف ترين نفسك يابنية»؟ فأشارت برأسها وعينيها أنها فى راحة. ثم رأت أم الفضل، فاستحيت منها وأرادت الجلوس، فنهضت أم الفضل إليها وهى تقول: «لا ترهقى نفسك يابنتى». ووقفت العجوز وقالت: «أم الفضل، وهى خالة محمد بن أبى بكر، أخت أمه، وهى أول من أسلم بعد خديجة، وهى أيضا زوج العباس ابن عم النبى وأخت ميمونة زوج النبى». فلما سمعت أسماء أنها خالة محمد اطمأنت إليها، ورحبت بها، فأسرعت أم الفضل وقبلتها وقالت: «أهلا بك كيف فارقت محمدا؟»، فعجبت أسماء لسؤالها فضحكت العجوز وقالت: «لا تعجبى ياأسماء مما تسألك لأنها على علم بكل شىء» فأطرقت أسماء خجلاً.. ولم تجب. فجلست أم الفضل إلى جانب العجوز على البساط بالقرب من الفراش، وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر أن يسمعها أحد: «هل قابلت أم المؤمنين؟ وكيف لقيتها؟»، قالت: «لقيتها ناقمة على قتلة عثمان». قالت أم الفضل: «علمت أنها أول يوم هبطت مكة دعت الناس إلى المطالبة بدم عثمان».

قالت العجوز: «نعم إنها فعلت ذلك ولكنى لا أظنها تنوى تحقيق ذلك». فأدنت أم الفضل فمها من أذن العجوز وخفضت صوتهامخافة أن يكون أحد بالقرب منهما فيسمع الحديث وقالت: «بل لابد أنهم سيطاوعونها، وعلمت أن الزبير وطلحة قادمان إلى هنا وكلاهما يطمع فى الخلافة لنفسه. وقد سار قوم لاستثارة أهل البصرة، وآخرون للكوفة، وغيرهم لتحريض أهل اليمن، وآخرون إلى الشام». فابتدرتها العجوز قائلة: «أما أهل الشام فلا يحتاجون إلى تحريض وفيهم معاوية ابن عم عثمان رحمه الله».

وأما أسماء، فكانت مضطربة الحواس. فانتقل ذهنها إلى محمد وما يعترض آمالها فيه من أمر اتهامه بقتل عثمان. على أنها لم تزل تود سماع دفاعه، فقالت: «لقد شهدت مقتل الخليفة عثمان رحمه الله، وسمعت دعوى الناس عليه ولكنه بدا لى أنهم ظلموه وأن الذنب ليس ذنبه وإنما ذنب مروان ابن عمه، فقد كان يتصرف فى شئونه كيفما شاء. لكن ابن أختك (تريد محمدا ولم تذكر اسمه حياء) يزعم أنه يستوجب القتل، وقد جادلته فى الأمر، فوعدنى بالدليل على صحة رأيه فى فرصة أخرى». فلما سمعت أم الفضل كلامها تنهدت ثم قالت: «فإنى أعرف عثمان قبل إسلامه، وأعرف حقيقة حاله، ما ظهر منها وما بطن، وهى لا تخلو مما يهيج الأحزاب عليه ويسبب الضغائن، وأظنه لو وفق إلى وزير حصيف أو مشير عاقل غير مروان لما بلغ الأمر إلى ما بلغ إليه. وإليك ما ارتكبه عثمان مما أثار غضب الصحابة عليه.. اعلمي أن الصحابة هم الذين قاموا بنصرة الإسلام وتأييده منذ أول

ظهوره، فلما تولى عثمان عزل الصحابة وولى آخرين من ذوى قرابته كما فعل بعمرو بن العاص فى ولاية مصر، وهو الذى فتح وغرس الإسلام فيها فعزله وولى مكانه أخاه عبدالله بن أبى سرح (أخا عثمان من الرضاعة) وعبدالله هذا كان فى جملة الذين ارتدوا بعد إسلامهم، ولحق بالمشركين فأهدر النبى دمه فأخذ عثمان له الأمان بعد فتح مكة، ثم أن عثمان أسرف إسرافا شديداً فى أموال بيت المال وكان يعطى أناسا من قرابته طردهم النبى، ولا يغرنك ما يقال عن تقشفه وزهده فى طعامه، وقد أساء إلى جماعة من أعلام الصحابة، وذوى المقامات السامية فى الإسلام، ونفاهم عن أوطانهم، بالإضافة إلى أنه زاد كثيراً من الضرائب على الأسواق، وحمى سوق المدينة حتى يفرغ وكيله من شراء ما يحتاج إليه عثمان، وحمى البحر من أن تجرى فيه سفينة إلا تجارته، ثم أنه أقطع أمور أصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الإسلام مما لم يكن له وجه حق. وهناك أمور أخرى نسبوها إليه» [1]، وكانت أم الفضل تتكلم بصوت منخفض، وأسماء كلها آذان صاغية لسماع حديثها، فاطمأن بالها لأنها رأت لمحمد عذرا فى عمله، وهى ميالة - من بادىء الأمر - لتبرئته. فأحست عند سماع كلام أم الفضل كأنها ألقت عن ظهرها حملاً ثقيلاً، ولكنها تعبت من الإصغاء وأحست بدوار وغثيان، فاستلقت

١ - الأستاذ جرجى زيدان هنا بصدد رواية وليس بصدد كتاب فى تحقيق التاريخ وتحليل رواياته ولو أنه كان بصدد مثل هذا الكتاب لربما كان له موقف آخر فى تحليل هذه الروايات وتحقيق صحتها، وهذا يدعو القارىء إلى طلب مثل هذا التحليل والتحقيق.

علـى ظهـرها ونامت، فتـركتـهـا العـجـوز فى الغـرفـة وخـرجت وخرجـت أم الفضل معها.

شـرب العسـل

وبينما هما فى الحديث إذ رأتا الغلمان فى حركة وهم يسرجون الخيل والجمال يهيئونها للركـوب، فعلمـت أن الأمـراء أوشكـوا علـى الخروج من عند أم المؤمنين.. فنهـضت أم الفـضل وودعت العجوز، وانصرفت على بغلة كان خادمها ينتظرها بها بالقرب من البستان. ثم دخلت العجوز غرفة اسماء تتفقد حالها فوجدت أم المؤمنين واقـفـة عـند رأس أسـمـاء . ولما رأتهـا أشارت إليـهـا أن تمشى الهـوينـا. وكـانـت أسـمـاء نائمـة تصبب عرقاً وسألت العجوز عن حالها فقالت لها العجـوز إن أسمـاء أصابتـهـا حـمى وأنها جاءت إليها بقدح من العسل فرفضته. وفتحت أسماء عينيها فرأت أم المؤمنين وقد دنت من فراشـها. ثم جست يدها فإذا هى لاتزال ساخنة؟ فقالت لها: «لماذا لم تشربى العسل يأسماء.. إنما هو دواء فيه الشفاء»، ثم أوصتها أن تتناول شيئاً من لبن الإبل.

طلحة والزبير

ولم يكد يستقر بهن المجلس حتى سمعن جعجعة وصهيلاً وجلبة فقطبت عائشة حاجبيها تطلعا لما يأتيها من أخبار القادمين، ودخل أحـد الخدم وعليه أمارات الدهشة. فـقـالت: «مـا وراءك ياغلام». قـال: «إن ركـبا قـادمـا من المدينة وفـيـهم طلحة والزبير يلتمسون المثول بين يديك». فلما سمعت أسماء ذلك ظهرت البغتة على وجهها، وتحفزت للنهوض والعودة إلى البيت، لتخلو أم

المؤمنين بالقـادمين. فـقـالت عائشـة (وقـد تغير وجـهـهـا): «لا أرى حاجة إلى دخول البيت الآن وإذا رأيت ألا تحضرا مجلسنا فاجلسا وراء هذا العريش». فنهضتا وتحولتا إلى مقعد وراء العريش جلستا عليه.. وقد سرت أسـمـاء ببقـائهـا هناك لعلمـهـا أن طلحة والزبير قادمان من المدينة بعدها، ولابد أنهما جاءا بخبر جديد أو جاءا فى أمر يهمـهـا الاطلاع عليه لعلاقته بالإمام على، وهى تعلم أنهـمـا بايعا عليا مكرهين، فلبثت مستترة بجوار العريش لتستمع إلى حديثهم. فأمرت عائشة بدخول طلحة والزبير، فدخلا، ودخل فى أثرهـمـا ابناهـمـا.. فـقـالوا: «السلام عليكم ياأم المؤمنين».. قـالت: «وعليكم السلام ياأصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحـمـاة الإسلام». وأمرتهم بالجلوس فجلسوا على مقعد وهم مطرقون لا ينظرون إليها إجلالا لحرمتها. فبعد أن استراحوا خاطبت طلحة والزبير قائلة: «من أين أتيتما؟»، فأجابها طلحة: «جئنا من المدينة». فقالت: «وكيف يقتل عثمان وأنتم تنظرون؟»، قال الزبير: «لقد دافعنا عنه بأولادنا وأنفسنا ولكن الغوغاء غلبت علينا». قالت: «ثم بايعتم وأنتم راضون؟»، فقالا بصوت واحد: «لم نبايع إلا والسيف على أعناقنا وما نحن راضون بهذه المبايعة». قالت: «انهضوا إذن إلى الغوغاء وطالبوا بدم ذلك القتيل». قالا: «إنما جئنا لذلك»[1]. فقالت: «وقد جاءنا أيضا عبدالله بن عامر خال عثمان وعامله على

١ - هناك رواية أخرى تؤكد أنهما جاءا يطلبان إلى أم المؤمنين التوسط للصلح بين الفئات المختلفة.

البصرة، فإنه لما سمع بمقتله حمل مافى بيت المال وجاء إلينا، وكذلك يعلى بن منية جاء من اليمن ومعه ستمائة ألف درهم وكانوا عندى اليوم».. ولم تتم كلامها حتى جاءها غلام ينبئها بقدوم ابن عامر وابن منية فقال: «ليدخلا». فدخل أولا ابن عامر وهو شاب فى الثلاثين من عمره وعليه جبة حمراء ثم دخل ابن منية وهو يمشى عرجا، وقد كسر فخذه فى طريقه من اليمن، وكان قد سمع بمقتل عثمان فجاء لينصره فسقط عن بعيره فى الطريق، فانكسرت فخذه فجاء برجاله وماله. فلما دخل ابن عامر وابن منية سلما على طلحة والزبير فقال طلحة لابن منية: «مالى أراك تمشى عرجا؟»، قال: «كسرت رجلى وأنا قادم لنصرة عثمان، ولكن معى المال والرجال، قوما بنا للأخذ بالثأر». فقال الزبير: «هلم بنا إلى الشام». فاعترضه ابن عامر قائلاً: «مالنا وللشام وفيها معاوية ولكنى أرى أن تأتوا البصرة، ولنسر إلى البصرة». فاجتمع الرأى على أن يسيروا إلى البصرة يدعون من بها للمطالبة بدم عثمان ويستفزونهم كما استفزوا أهل مكة. وكانت أسماء تسمع حديثهم فلما علمت بما تم إجماعهم عليه وتحققت أن الفتنة واقعة لا ريب فيها اضطربت وخفق قلبها وثارت الحمية فى رأسها، فأدركت العجوز اضطرابها، فأمسكت بيدها فإذا هى ترتعش فهمست فى أذنها ألا تضطرب لئلا تضر بصحتها.. فقالت: «لا صبر لى على ما أسمع وهم إنما يريدون الانقضاض على الإمام على بعد أن بايعوه».

الإجماع على الطلب

وإذ بها تسمع صوتا ارتعدت له جوارحها، وإذا صوت مروان وقد دخل العريش. وقبل أن يلقى التحية خاطب طلحة وهو يضحك: «على أيكما أسلم بالإمارة»، أى أيكما سيكون أمير المؤمنين.. فأجابه عبدالله بن الزبير: «على أبى»، (يعنى أباه الزبير) فاعترضه محمد بن طلحة وقال: «بل على أبى» (يعنى أباه طلحة) فضحك مروان وقال: «بل اجعلوا الخلافة فى ولد عثمان» فابتدرته أم المؤمنين قائلة: «أتريد أن تفرق أمرنا يامروان؟».

فلما سمعت أسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبراً ولاسيما أنها سمعت أسماء كلام عائشة تنهره. واخترقت الجمع وهى ترتجف وقد امتقع لونها. فلما رآها الناس بغتوا لجسارتها، وكان طلحة والزبير يعرفانها فبهتوا جميعاً ولم يتكلموا. ووقفت بقلب لا يهاب الموت، ونظرت إلى مروان وقالت: «أما كفاك يامروان ما ألقيته من الفتنة فى المدينة؟ أما كفاك أنك سبب مقتل الخليفة حتى جئت تلقى الشقاق بين بقية الصحابة. والله لولا حرمة أم المؤمنين لأرقت دمك بين يديها». قالت ذلك وصوتها يرتجف. ولما فرغت من كلامها حولت وجهها إلى أم المؤمنين لترى ما تبدو عليه. ولما سمع القوم كلامها لبثوا جميعاً صامتين وهى ترتجف فأجابها مروان وهو يضحك قائلاً: «تقولين إنى قتلت الخليفة ولم يقتله إلا صاحبك محمد ربيب على، وسوف يلقى كل منهما جزاء ما جنته يداه». فقالت: «لا تذكر ابن أبى بكر شقيق أم

المؤمنين ولا تلفظ باسم ابن أبى طالب أمير المؤمنين»، فأراد مروان أن يجيبها فأسكتته أم المؤمنين قائلة: «أتذكر أخى محمدا يامروان ؟.. اسكت. وأنت ياأسماء خففى عنك، إنك مريضة، اذهبى إلى فراشك». وكانت العجوز بجانبها، فأمسكتها بيدها وخرجت بها. فلما خرجتا من البستان صاحت أسماء بالعجوز قائلة: «اخرجى بى من مكة فأنا لا أستطيع البقاء فيها». قالت: «وإلى أين تذهبين يابنيتي ؟»، قالت: «إلى يثرب». قالت: «وكيف تذهبين؟ وماذا نفعل بأم المؤمنين إذا افتقدتك ؟»، قالت: «لا أدرى ماذا نفعل ولكننى لا أستطيع البقاء هنا ولابد لى من الذهاب إلى المدينة». قالت: «لا أستطيع الذهاب إليها الآن». قالت: «اذهبى بى إلى منزل آخر غير هذا المنزل». قالت: «أتذهبين إلى أم الفضل..؟»، قالت: «هيا بنا إليها».

وكانت العجوز قد عرفت منزل أم الفضل فسارت بها إليه فلما أقبلتا عليه استقبلتهما أم الفضل وقد استغربت مجيئهما. أما أسماء فلم تكد تبلغ المنزل حتى عاودتها الحمى، وأصابها الدوار، فدعتها أم الفضل إلى الغرفة فرفضت. وقالت وقد توردت وجنتاها من شدة الحمى: «انقلونى إلى المدينة احملونى إلى الإمام لأخبره بما يتآمر به الناس عليه إنهم يريدون المطالبة بدم عثمان. وهم يتهمون الإمام على بقتله»، فاستغربت أم الفضل قولها فقالت: «ما الذى جرى بعد خروجى من عندكم ؟»، فقصت العجوز عليها ما جرى فى الاجتماع. فصاحت أم الفضل: «ويلاه لقد عظمت الفتنة، وسأرسل رسولاً إلى على بكل ما وقع».

مخاوف محمد بن أبى بكر

تركنا محمدا في المدينة وقد ودع أسماء عند ركوبها إلى مكة وعاد وفى نفسه شىء أقلق راحته لا يدرى ما هو، وكان يحسب أن قلقه مما يخشاه من مزاحمة على أسماء. ولم يكن يخاف الحسن لأنه ابن أمير المؤمنين، ولكنه يحبه كثيراً، وقد ربيا معا. ومما زاد قلقه أنه أرسل أسماء على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن تقدير الأمر حق قدره. فوقع فى حيرة لا يدرى ماذا يجيب به الحسن إذا سأله عن أسماء، ولا كيف يعتذر أو ينتحل سببا لسفرها. فحدثته نفسه أن يعرج إلى مكان يقضى فيه نهاره، قبل الذهاب إلى منزل على. وقد علم محمد أن الناس بايعوا عليا وفيهم من يضمر السوء. ولما بلغ باب الإمام، رأى الناس قد تكاتفوا حوله. دخل محمد الدار وهو يلتمس والدته، وقد عزم على مكاشفتها بما فى نفسه لعلها تخفف عنه وتواسيه.. فدخل حجرتها فإذا هى جالسة وحدها، فحياها فرأت فى وجهه انقباضا فابتدرته قائلة: «مالى أراك منقبض النفس يامحمد»!، قال وهو يغالطها: «ليس فى نفسى غير ما نحن فيه»! قالت: «وماذا جرى.. هل أنت خائف من مصير الخلافة؟»، قال: «لا أقول إنى خائف ولكننى أرى طلحة والزبير لم يبايعا إلا كرها، والكوفيون والبصريون على رأيهما، فأخشى أن يهم الناس بنقض المبايعة». ثم قال: «ولا يغرنك كثرة العدد وفيهم من يضمر غير ما يظهر.. وياليت ابن خالتى عبدالله هنا (عبدالله بن عباس) فإن له رأيا سديداً وهو ابن عم أمير المؤمنين». قالت: «لعله لا يزال غائباً فى مكة منذ سار إليها».

المغيرة بن شعبة

ولم يتم كلامه حتى سمع وقع أقدام خارج الحجرة عرف أنها خطوات الحسن، فبغت ولكنه تظاهر بالاهتمام وقال: «هذا أخى الحسن لعله يخبرنا بما دار بين الإمام على والمغيرة». قالت والدته: «ادعه»، فخرج محمد ليدعوه فإذا هو داخل فابتدره محمد بالسلام، فحياه ولم يزد على السلام شيئا. فقال له محمد: «أهلا بأخى ابن أمير المؤمنين لقد كنا فى حديث هذه الخلافة ونحن فى شوق لاستطلاع ما دار بين مولاى أبى الحسن والمغيرة». فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب، ثم قال: «تسألنى عن المغيرة؟ إن المغيرة صاحب رأى وحزم ولكن والدى لم يصغ إليه، فقد سمعت كلامه وأعجبنى رأيه، ولكن أمير المؤمنين لم يطعه فيما أراد، ولإن كان رأيه هو الصواب، وهو من أعظم دهاة هذه الأمة». فقال محمد: «وماهو الرأى الذى رآه؟»، قال: «أنت تعلم ياأخى أن بعض الناس بايعونا مرغمين (يقصد طلحة والزبير) ولا يخفى عليك أن خوفنا ليس من أهل المدينة، ولا من أهل مكة وإنما نحن خائفون من زعماء الأمصار فى مصر والشام والكوفة والبصرة. وأشد هؤلاء بطشاً وأكثرهم عداوة لنا معاوية بن أبى سفيان فى الشام وهو كما تعلم ابن عم عثمان وكان من أكبر أنصاره، وكذلك ابن عامر فى البصرة وهو ابن خال عثمان». قال محمد: «نعم». قال: «فأشار المغيرة على والدى أن يبقى من ولاهم عثمان حتى يستقيم لنا الأمر، فأبى والدى وقال كلا، فلما رآه مصرا على رأيه قال له: «اعزل من شئت واترك معاوية وهو فى أهل الشام

وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام قبل عثمان فأقسم والدى انه لا يبقى معاوية يومين فخرج المغيرة دون أن يلفظ بحرف. قال ذلك، وسكت الحسن هنيهة يفكر، ثم انبسطت أسرته بغتة كأنه تذكر شيئاً وقال وهو يبتسم: «إن الخلافة ومشاكلها شغلتنى عن أمر آخر ذكرته لك تلميحا، وكنت عازما على مخاطبة والدى بشأنه اليوم فأمسكنى عن ذلك انصرافه إلى المغيرة». فأدرك محمد أنه يقصد خطبة أسماء، فكادت البغتة تظهر عليه ولكنه تماسك وقال: «وماذا يكون ذلك الأمر ياأخى»؟ قال: «لا أظنك تجهل مافى نفسى نحو أسماء، تلك الفتاة الأموية التى نزلت عندنا». وحول وجهه إلى أم محمد.. وقال إنها ياخالتى بارعة الجمال». ولم يدر محمد بماذا يجيب، ولكنه قال: «وهو يتظاهر بعدم الاكتراث: «لماذا لم تقل لى قبل سفرها». فبغت الحسن وقال: «أين سافرت؟»، قال: «سافرت إلى مكة فى صباح هذا اليوم». قال: «وكيف ذلك؟ وما الذى حملها على السفر؟ ومن سافر بها وهى وحيدة؟»، قال: «إنها سافرت مع عجوز من ذوى قرابتى ورجل من بنى الليث من أخوال أختى أم المؤمنين». فقطب الحسن وجهه وقد استغرب ذلك وقال: «وما الذى حملها على السفر؟»، قال: «سمعتها تقول إنها تفضل البعد عن المدينة فى أثناء هذه الاضطرابات وطالما أرادت التعرف إلى أم المؤمنين، فأظنها ذهبت لتقضى عندها بضعة أيام ثم تعود». فأطرق الحسن مدة يفكر ثم قال: «لا بأس من ذهابها الآن، وسأغتنم أول فرصة يخلو فيها والدى فأعرض عليه أن يخطبها لى، فإذا لم تكن قد جاءت

نبعث فى استقدامها».. قال ذلك وخرج وظل محمد جالساً وقد امتقع لونه، فلاحظت والدته عليه ذلك فقالت: «يظهر أن حديث الحسن أهمك». فتنهد ولم يجب.. فقالت: «مالك لم تجب؟»، فتردد أن يكشف لها سره أو يظل على كتمانه ولكنه لم يعد يستطيع صبرا على الكتمان فقال: «لقد أهمنى الأمر أكثر مما تظنين»! قالت: «ولماذا؟». قال: «الفتاة التى ذكرها الحسن مخطوبة»! قال: «ولمن». قال: «لى». قالت: «ماذا تقول؟»، قال: «هذا هو الواقع». قالت: «وكيف يطلبها لنفسه؟»، قال: «لأنه لا يعلم ذلك». قالت: «ولماذا لم تخبرنى بخطبتها قبل الآن؟»، قال: «عزمت على ذلك وجئت بها إليك فلم أجدك». قالت: «وما العمل الآن؟»، قال: «لا أدرى وسأصبر». قالت: «أتغضب أخاك الحسن من أجلها؟»، قال: «معاذ الله أن أغضبه وأنت تعلمين حبى له، ولكنى سأرى ما يأتى به القدر».

عبدالله بن عباس

ومضت أيام والحسن يترقب فرصة ليخاطب والده فى شأن أسماء فلم ير إلى ذلك سبيلاً لانشغاله فى تصريف الأمور فإن الإمام عليا منذ ولى الخلافة لا يهدأ له بال، وزعماء الأمصار أكثرهم ناقمون عليه، ولعله لو أطاع المغيرة لخفف شيئاً من نقمتهم، ولكنه أصر على استبدالهم بمن يثق بهم وبأمانتهم من رجاله. وكان الحسن، يهاب أن يحدث والده فى أمر الخطبة وهم فى تلك الشواغل، لئلا يخيل له أنه اشتغل بالحب عن الخلافة، فلاح له أن ينتظر مجيء عبدالله بن عباس فيوسطه فى الأمر لما

يعلم من دالته على والده. وذكر ذلك لمحمد بن أبى بكر فلم يجبه ولكنه قلق وزادت غيرته. فلما سمع محمد بمجيء عبدالله بن عباس أراد أن يشغله بحديث الخلافة عن السعى فى الخطبة، فأسرع إليه قبل أن يعلم الحسن بمجيئه وأنبأه بما كان من حديث المغيرة بن شعبة، وما أشار به على الإمام على، إلى أن قال: «ولقد كنا فى انتظار مجيئك لعلك تثنى الإمام عن عزمه فقد أصر على خلع من ولاهم عثمان وهم كما ترى – ناقمون ولهم أنصار، وخاصة معاوية». فقال عبدالله بن عباس: «إن المغيرة والله مصيب ونعم الرأى رأيه» فقال محمد: «وهذا هو الرأى الذى نراه جميعاً»، فلما سمع كلام محمد سار إلى منزل الإمام على ومحمد يتبعه، ولما وصلا إلى الدار رأيا المغيرة بن شعبة واقفاً بباب حجرة الإمام على وهو خارج، فقال عبدالله بن عباس لمحمد: «هل جاءه ثانية أم هذه خلوته التى ذكرتها لى؟»، قال: «بل هذه غيرها ولا ندرى ما جاء به».

وحينذاك جاء الحسن ورأى عبدالله بن عباس يدخل إلى حجرة الإمام على، ودخل محمد فى أثره. فلما أقبل عبدالله على الإمام حياة بتحية الخلافة قائلاً: «السلام عليك ياأمير المؤمنين». فلما سمع على تحية عبدالله بن عباس رد عليه التحية ورحب به وقال: «وعليك السلام ياابن عم الرسول». قال ذلك والانقباض ظاهر على وجهه. فمشى عبدالله حتى جلس إلى جانبه وجلس الحسن ومحمد فى أحد جوانب الغرفة.

على وابن عباس

ثم قال ابن عباس: «رأيت المغيرة خارجا من عندك، فهل جاءك برأى جديد؟ إنى أؤمن بدهائه وسداد رأيه». قال على: «وقد كنت أعتقد ذلك حتى جاءنى منذ أيام يشير على أن يبقى معاوية وسائر من ولاهم عثمان فى أعمالهم. وأنت تعلم أنهم كانوا من أعظم المقاومين لنا وأنهم الذين أثاروا الفتنة، ولقد قتل عثمان رحمه الله بسببهم فكيف أبقيهم. لقد قررت عزلهم، فطلب إلى أن أبقى معاوية على الشام فأقسمت أنى لا أبقيه يومين، فخرج من عندى يومئذ وفى رأيه أنى مخطىء. ثم عاد إلى الآن فقال لى: «إنى أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت وخالفتنى، ولكني أري الآن أن تعزلهم وتستعين بمن تثق بهم».

فلما سمع عبدالله بن عباس كلام الإمام تبسم وقال: «أتظن ياابن عمى أن المغيرة قال فى هذه المرة ما يعتقده؟، اعلم ياأمير المؤمنين أنه فى المرة الأولى نصحك وفى هذه المرة غشك ومتى تعزل معاوية ينقض عليك أهل الشام وأهل العراق.. وإنى لا آمن طلحة والزبير ولهذا أشير عليك أيضا أن تثبت معاوية»، وكان عبدالله بن عباس يتكلم وعلى مطرق وهو مقطب الوجه، وقد أقلقه ذلك الأمر كثيراً. وأما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس وقلباهما يرقصان فرحا على أمل أن يقنع الإمام على بإقرار بقاء معاوية تجنباً للحرب. فلما فرغ ابن عباس من كلامه لبثا ينتظران ما يقوله على، فإذا هو لا يزال مطرقاً عابسا والسكوت سائد فى تلك الحجرة فلما رأى عبدالله بن عباس ما بدا على وجه على من أمارات الغضب هاب منظره، ولكنه شق عليه أن

يسير الإمام على ذلك الرأى لعلمه بما يتوقعه من عواقب الأمر، فقال له: «أنت رجل شجاع ولكنك لست صاحب رأى فى الحرب. أما سمعت رسول الله (ص) يقول الحرب خدعة». فقال على: «نعم». فقال ابن عباس: «أطعنى وأغلق بابك عليك فإنك والله لئن نصبت العداء على هؤلاء اليوم، يحملك الناس دم عثمان غداً». وكان ابن عباس يتكلم وملامح وجه على وحركاته تدل على أنه غير مقتنع. فلما فرغ من كلامه قال له على: «تشير على وأرى، وإن عصيتك فأطعنى». فقال ابن عباس وهو يحنى رأسه إجلالا: «أفعل .. إن أيسر ما لك عندى الطاعة». فقال على: «تسير إلى الشام فى مكان معاوية فقد وليتك عليها». قال ابن عباس: « معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان ونائبه وقد يضرب عنقى نقمة لعثمان، وإن أقل ماهو صانع أن يسجننى». وأصر الإمام على رأيه فسكت ابن عباس ولبث صامتا برهة ثم استأذن وخرج.

خلافة معاوية

وقضى على ذلك أياما لا يخلو مجلسه من الأمراء بخصوص هذه الشئون، فلم ير الحسن سبيلاً إلى مفاتحته فى شأن أسماء، فلما فرغ من تنصيب عماله على الولايات وقل ورود الناس إليه رأى الحسن أن يخاطبه فى الأمر، فقال لمحمد: «أرى والدى قد فرغ من إرسال نوابه إلى الولايات، ولا أرى وقتا أصلح من هذا لأعرض عليه موضوع أسماء ولكنى أرجو أن تساعدنى أو تكلمه عنى بشأنها».. فتحير محمد فى أمره لا يدرى بم يجيبه وقلبه

يتقد غيرة ولكن حبه للحسن غلب عليه، فلم يجب بل تشاغل بشبح يراه خارج سور المدينة، فأخذ يتأمله ويتفرس فيه وقال: «إنى أرى فارسا قادما فى سرعة البرق نحو المدينة وكأنى به رسول»، فالتفت الحسن فرأى هجانا مقبلا عن بعد. فقال: «وممن هذا الرسول ياترى؟»، قال محمد (وقد سر لتغير الموضوع): «إنى كلما رأيت رسولاً قادماً إلينا خشيت أن يأتينا بخبر سوء ويخيل إلى أن النواب الذين أرسلهم أمير المؤمنين راجعين القهقرى. أجارنا الله من عواقب الفتنة»، فقال الحسن: «ومن أين تظن هذا الرسول قادما؟»، قال: «يظهر لى أنه قادم من الشام فلعله رسول معاوية».، قال الحسن: «دعنا نستقبله ونسأله عمن هو»، قال محمد: «هلم بنا وإذا كان رسول معاوية فالأمر إما انتهى إلى السلم وإما إلى الحرب لأن أمير المؤمنين كتب إليه منذ ثلاثة أشهر ولا ندرى ماذا يكون جواب.». قال ذلك ومشيا، وكان الرسول قد دخل المدينة. فلما دنا منهما تفرسا فيه، فإذا هو رجل من أهل الشام وقد التف بالعباءة وتلثم بالكوفية، وعلاه الغبار من أثر السفر فلما دخل المدينة مد يده إلى جيبه واستخرج رسالة مختومة والناس يتبعونه فاستوقفه محمد قائلا: «من أنت؟» قال: «رسول معاوية بن أبى سفيان». قال: «إلى من؟» قال: «إلى أمير المؤمنين» قال الحسن: «وماذا تحمل إليه؟» قال: «هذا الكتاب» وأشار إلى الرسالة فقال: «سر إلى أمير المؤمنين إنه فى داره»، فسار وساروا فى أثره. ووصل الرسول إلى دار على، وبينما هو يعقل جمله سبقه محمد والحسن إلى الخليفة، وكان متكئا فى حجرته فأخبراه بقدوم الرسول فلما

علم جلس وقد اهتم بأمره واستدعاه إليه.. فدخل، وعلى جالس ومحمد والحسن وغيرهما من الصحابة بجواره فتقدم ذلك الرسول غير مكترث وقال: «آمن أنا؟» قال: «نعم، إن الرسول لا يقتل». قال: «تركت ورائى قوما لا يرضون إلا الانتقام» قال على: ممن؟ قال: «من رقبتك، وتركت ورائى ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد وضعوه على منبر في دمشق». فنظر على إليه نظرة استغراب ودهشة وقال: «أمنى يطلبون دم عثمان.. اللهم إنى برئ من دم عثمان»، قال ذلك وحول وجهه عن الرسول وأشار إليه أن يخرج. قال الرسول: «أأخرج وأنا آمن؟» قال: «وأنت آمن». فتحول الرسول، وأشار الإمام بعد ذلك إلى الناس فخرجوا، وخلا بخاصته، وبينهم أولاده ومحمد بن أبى بكر، وبعث إلى عبدالله بن عباس وقال لهم: «سمعتم ما قاله معاوية فلم يبق بعد ثمة بد من القتال فتهيأوا» فقالوا بصوت واحد: «إننا معك أينما سرت، وإننا طوع أمرك فيما تعهد به إلينا». وقضى على أياما فى إعداد المعدات ومحمد والحسن فى مقدمة العاملين معه. أما محمد فلما رأى الحرب وشيكة الوقوع وأن الجند تحشد وأن أمير المؤمنين لم ينتدبه، ألحت عليه فكرة وجوب الدفاع عن على لأنه كان فى جملة الذين جروا عليه ذلك الثأر.

حرب أخرى

فدخل محمد على على فرآه يذرع غرفته ذهابا وإيابا وليس فى الغرفة سواه. ورأى فى يده رقعة يتأملها ويعيد تلاوتها وقد أخذ القلق منه مأخذا عظيما. فتهيب الدخول عليه، وظل واقفا عند الباب، متردداً بين أن يدخل أو يعود، فلمحه على فناداه فدخل وحياه، وإذا بعلى يسأله: «أين هو الحسن؟» قال: «لا أدرى يا مولاى لعله فى المسجد، فهل من أمر أقضيه لأمير المؤمنين؟» قال: «سأطلعك على ما حدث، ولكن ما الذى جئت به؟» قال: «إنما جئت ألتمس من سيدى أبى الحسن أن يساوينى بأهل الثقة من رجاله» قال: «وماذا تعنى؟» قال: «أعنى أنك أمرت بالتأهب للحرب وعينت القواد والأمراء ولم تأمرنى بالمسير معهم، وأنا أولى منهم بالمساهمة فى هذه الحرب»، فابتسم الإمام على وقال: «بورك فيك يا ابن أول الخلفاء أنت عندى كأحد أولادى، لقد استبقيتك لمهمة أخرى».. قال على ذلك وألقى إليه برسالة كانت فى يده وقال: «اقرأ هذه الرسالة التى أتتنى الساعة»، فتناولها محمد ونظر فيها، فإذا هى رسالة من مكة تنبئ الإمام عليا بإجماع طلحة والزبير وأم المؤمنين على المطالبة بدم عثمان، وأنهم تهيأوا للسير إلى البصرة. فعجب محمد وتلا الرقعة ثانية وثالثة، وأراد محمد أن يكلمه فرآه يقلب صفحات القرآن. وفجأة تحول على إليه وقال: «أرأيت يا محمد ما فعلت بنا أختك؟» فقال محمد: «إنى أعجب من عملها ولا أكاد أصدق أنها تعمله. ألم يعلم أمير المؤمنين بشئ غير ما فى هذه الرسالة؟» قال على: «أتسألنى عن السبب وقد أنبأتكم بهذه

العواقب قبل حدوثها؟ كم قلت لكم دعوا عثمان وشأنه لا تقتلوه لأن قتله سيكون سبب فتنة عظمى لطمع بعضهم فى الخلافة لأنفسهم. وقد بايعونى وأنا أعلم أنهم يضمرون غير ما يظهرون، فإن طلحة والزبير يريدانها كل منهم لنفسه دون سواه، فهما فى انقسام عليها ولو اتحدا فى مقاومتى. وسترى إذا كتب لهما النصر أن الحرب ستقوم بينهما حتى يفنى أحدهما الآخر، ويقتل الألوف من المسلمين. ولو أن تنازلى عن الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها منذ اليوم. ولكننى أعلم أنها تصبح بعدى فوضى كل منهم يطلبها لنفسه. فضلا عن معاوية فى الشام يطمع أيضاً فى الخلافة ولا تصدق ما يدعيه من المطالبة بدم عثمان لأنه لو أهمه أمره لنصره قبل أن يقتل. ولكنه اتخذ قتله ذريعة إلى التماس الخلافة لنفسه مع علمه أنى أولى الناس بها. فالغيرة على الإسلام وحدها تدعونى إلى الدفاع عن خلافتى وأما خروجها من يدى طوعا أو كرها فإنه يدعو إلى فتنة عظمى أخشى أن تقضى على الإسلام والعياذ بالله». فقال محمد: «يخيل إلى يا مولاى أن أختى أم المؤمنين لم تقم بهذا الأمر إلا مدفوعة بتحريض طلحة والزبير. وقد خرجا من المدينة غاضبين وإنى لأرجو إذا لقيتها أن أثنيها عن عزمها، ولكننى لم أفهم الحكمة فى مسيرها إلى البصرة دون سواها».. قال: «أظنهم رأوا أهل المدينة بايعونى فقصدوا أهل مكة وحشوهم على نقض البيعة، وساروا يفعلون مثل ذلك فى البصرة والكوفة وقد رأيت أن أنتدبك للمسير إلى مكة كى تستطلع الحقيقة بنفسك، وأنت أجدر الناس بذلك لأن أختك أم المؤمنين فى جملة القائمين بهذه

الحملة»، فسر محمد لهذه المهمة سرورا عظيما لأنه يخدم بها الإسلام ويرضى بها الإمام ويستطلع حال أسماء. فأجاب قائلا: «إنى سائر الساعة، أرجو أن أحول أختى عن عزمها».

خواطر وهواجس

خرج محمد لساعته وودع عليا ولم يعلم أحد بمهمته، وركب جملاً واصطحب معه خادما.. وركب قاصدا مكة وهو لا يصدق أنه سيرى أسماء، وتذكر وهو فى الطريق نصائح أسماء وما تنبأت به من عواقب تلك الفتنة، فعظمت فى عينيه وازداد اعجابا برجاحة عقلها، ولما أصبح على بعد بضعة أميال من مكة كان النهار يدنو من آخره فأشار عليه خادمه أن يستريح هنيهة ويريح الجمل ريثما يطلع القمر فيسيران على نوره فاستجاب لرأيه ونزلا مكاناً استلقى فيه على حصيرة من سعف النخيل ثم صعد إلى رابية خلا فيها بنفسه وقد غابت الشمس، فتحول نظره إلى مغيبها فى الأفق، يراقب تلونه. حتى خيم الظلام وقد لفت نظره نحو الأفق أشباح فتفرس فيها فإذا هى بضعة جمال على أحدها هودج وعلى سائرها أناس حجب البعد هيئتهم، وأسرعوا فى المسير خارجين من مكة قاصدين المدينة فى غير الطريق العام، وكأنهم سائرون خلسة.. وود لو أنه علم بأمرهم. ولكن الظلام حجبهم عنه. ولما أشرق القمر وسطع نوره نادى على خادمه فأعد الجمال، وركب قاصدا المدينة.

البغتة

ولما دخل مكة واصل السير يريد منزل أم المؤمنين. فمر بالأسواق

حتى وصل بيت أخته، فترجل عند بابه وقرعه، فأطل عليه عبد حبشى عرف من صوته أنه عبد أم المؤمنين، فناداه باسمه، ففتح له الباب فدخل فرأى المنزل هادئاً، فسأله عن أم المؤمنين، فقال: «إنها خرجت من مكة الأمس»، قال: «وإلى أين ذهبت؟»، قال: «ألم تسمع بما أجمعوا عليه؟»، قال: «وهل ساروا إلى البصرة؟»، قال «نعم» فسأله عمن سار معها فأنبأه وأسف لوصوله بعد خروجهم، وأراد العبد أن يحل جمله ويهيىء له الطعام فقال له: «لا تفعل.. إنى خارج وربما أعود». وأمر خادمه بأن يمكث هناك ريثما يرجع وخرج قاصدا بيت أم الفضل فوصل إلى منزلها فرآه مغلقا أطفئت مصابيحه، فظن أهله نياما فتردد فى أن يوقظهم أو يصبر إلى الغد، ولكن شوقه لرؤية أسماء هون عليه إيقاظهم. فدنا من الباب وأمسك بحلقته وشدها، فرأى الباب موصدا، فقرعه قرعا شديداً فأجابه البستانى فسأله عن أم الفضل، فقال البستانى: «إنها ذهبت إلى فراشها وأظنها لم تنم»، قال: «قل لها ابن أختك — محمد — جاء»، فلما علم البستانى أنه محمد بن أبى بكر هرول إلى مصباح وأناره ودعا محمدا للجلوس على المصطبة ودخل إلى أم الفضل، فأخبرها فأسرعت إليه وقد أصابتها البغتة وصاحت قبل أن يحييها قائلة: «ما الذى جاء بك يا محمد؟ وأين كنت؟» فعجب للهفتها وقال: «إنى قادم من المدينة.. أين أسماء؟» قالت: «كيف تسألنى عنها وقد بعثت فى استقدامها؟» ألم تبعث إليها كتابا تستقدمها به إليك؟» قال: «ومن قال لك ذلك؟» قالت: «لم يقل لى أحد ولكنى رأيت رسولك ومعه كتابك، دفعه إليها عند

العصر وكانت لاتزال ضعيفة لا تقوى على السفر، فلم تصبر إلى الغد بل ركبت حالا..» قال: «ماذا تقولين؟.. هل سافرت أسماء؟ إنهم زوروا الكتاب على لسانى. من تجاسر أن يفعل ذلك، من هو النذل الذى ارتكب هذه الخيانة؟» فضربت أم الفضل يدا بيد وصاحت: «ماذا تقول يا محمد؟» ، فبهت محمد لحظة ثم قال: «من أى الطرق سافرت؟» قالت: «سافرت فى هذا الطريق المؤدى إلى المدينة».. فتذكر محمد الأشباح التى رآها خارج مكة وقال: «لقد لقيتها والله فى طريقى ولكنى لم أعرفها.. من يا ترى فعل ذلك؟» وصمت برهة يفكر، ثم هب من مكانه وقال: «استودعك الله يا خالة.. دعينى أتعقب الركب الذين رأيتهم فى طريقى لعلى أظفر بها معهم». وخرج مسرعا يلتمس الطريق الذى رأى الركب سائرين فيه. فمر بخادمه فى منزل أخته فرآه غارقا فى النوم فأيقظه، وأمره أن يتهيأ للرجوع.. فنهض وعيناه لا تنفتحان من شدة النعاس.. وبعد قليل ركب وسار بأسرع ما يمكنه. وكان القمر قد تكبد السماء والجو قد صفا فالتمس الطريق الذى ظن أن الركب ساروا فيه فوصلا إلى مكان يتشعب فيه الطريق إلى شعبتين: أحدهما تصل بطريق المدينة، والأخرى تنتهى إلى طريق البصرة. فوقف هناك ووقف خادمه وكلاهما صامت.

اقتفاء الاثر

وأما الخادم فكانت دهشته عظيمة لما رآه من غضب محمد وقلقه. فلما وقف محمد عند مفترق الطرق، وقف الخادم معه وهو لا يتكلم، وكان على جانب عظيم من الذكاء، عارفا بالأسفار

خبيرا بالطرق وفروعها وخاصة فى اقتفاء الأثر. فأراد أن يستطلع ما فى نفسه فقال: «ما بال سيدى واقفا؟.. ألا يرى أن يأمرنى بخدمة أؤديها؟» فلما سمع محمد كلامه تذكر مهارته فى استطلاع آثار الأقدام فقال له محمد: «هل أنت بارع فى اقتفاء الأثر يا مسعود؟» ، قال: «نعم يا مولاى إنى من مقتفى الأثر». قال: «أترى على هذا الرمل أثر لمشاه أو فرسان؟ وهل تستطيع أن تتحقق من ذلك فى ضوء القمر؟» قال: «نعم يا مولاى»، وترجل عن راحلته وجعل يتفرس فى رمال الطريق كأنه يقرأ كتابا أو يحسب حسابا، ومحمد بالقرب منه يراقب حركاته. فرآه ينتقل بخفة ولباقة، فلا يضع قدمه إلا حيث يرى أنها لا تفسد أثرا سابقا. ومازال يروح ويجئ وهو يتفرس ويعد ويحسب ، ويراقب جهة الأقدام أو الحوافر، ومحمد يعجب لما يبدو من خفته، حتى كاد يمل الانتظار، وأدرك مسعود قلقه، فقال: «لا تضجر يا مولاى من طول الانتظار، فإنى أرى ارتباكا فى آثار الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقفوا فيه برهة يروحون ويجيئون.. وعاد مسعود إلى عمله وهو يمشى القرفصاء ويحنى رأسه يتفرس فى الرمال حتى يكاد يلامس وجهه الأرض قضى فى ذلك ساعة ومحمد إلى جانبه قلقا، ثم تقدم نحوه وهو يقول: ماذا رأيت يا مسعود؟» ، قال : «إنها آثار قافلة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال، بينهما جملان يسيران متتابعين كأنهما يحملان هودجا ومعهما مشاة من الرجال ويظهر أن الركب وقف هنا وتردد .. يدلك على ذلك ما فى آثار الأقدام من الاضطراب ولكن يظهر أنهم اتفقوا على المسير إلى البصرة أو الكوفة» ، فسكت

محمد وقد حدثته نفسه أن يتبع تلك الآثار، فخاف أن يشغله ذلك عن المهمة التى جاء بشأنها إلى مكة، فمل مسعود الخادم من تكتم محمد الغرض من هذا البحث، فأراد معرفة السر. فقال: «هل يرى مولاى أن يطلعنى على ما أهمه من هذا الركب لعلى أستطيع أن أقدم له خدمة». قال: «يهمنى يا مسعود من هذا الركب أمر كبير.. هل تعرف خادمتنا العجوز التى كانت فى المدينة؟» قال: نعم أعرفها قال: «إنها جاءت مع فتاة أموية إلى مكة وأقامت عند أختى أم المؤمنين، فلما أجمع أهل مكة على المسير إلى البصرة جاءهما أناس بكتاب مزور على لسانى يدعونهما إلى المدينة..»، فقال مسعود: «هل ترى أن أقتفى آثارهم وآتيك بالخبر، وإذا استطعت إنقاذها فعلت»، فحثه محمد على الإسراع وأوصاه أن يحافظ على نفسه.

حملة على البصرة

أما الإمام على فإنه خلا بنفسه بعد خروج محمد من غرفته وقرر أن يسير إلى البصرة بدل الشام فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوا على ذلك. فدعا أهل المدينة وخطب فيهم وأعد الناس التعبئة اللازمة لخوض المعركة. وبينما هو فى الاستعداد إذ أقبل محمد بن أبى بكر وأنبأه بما كان من خروج عائشة وطلحة والزبير ومن معهم إلى البصرة، فعزم على الإسراع بالمسير.. وكان الناس يتوقعون أن يرسل الحملة ويبقى هو فى المدينة حفظا لسلطانه فيها. فلما رأوه ركب فى مقدمة الحملة، تقدم إليه عبدالله بن سلام وقال: «يا أمير المؤمنين لا تخرج منها، فو الله إن خرجت

منها لن يعود إليها سلطان المسلمين».. فقال: «لابد من خروجى!» فتكاملت الحملة واستعدت للخروج ومعهم محمد والحسن ولم يكن الحسن راضيا عن خروج والده فى تلك الحملة بنفسه، وقال له: «لقد عصيتنى كلما نصحتك فلو أنك قتلت غدا فلا ناصر لك». ثم قال: «نصحتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم نصحتك يوم قتل أن لا تتولى الخلافة حتى تأتيك وفود العرب ويبايعك أهل كل الأمصار»، فقال له على: «أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان، فأحيط بنا كما أحيط به، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحداً أحق بالخلافة منى فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته، ثم أن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحد أحق بهذا الأمر منى .. فبايع الناس عمر فبايعته، ثم إن عمر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس عثمان فبايعته، ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرهين، فأنا مقاتل كل من خالفنى حتى يحكم الله لى. وأما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير.. أتريد أن أكون كالضبع التى يحاط بها؟»، أعد على حملته، فجعل ابنه محمد بن الحنفية صاحب الراية وأعدوا لعلى ناقة حمراء يركبها.

مسعود والعجوز

كان محمد بن أبى بكر فى شغل عظيم من أمر الحرب والاستعداد لها ولكنه كلما خلا إلى نفسه لحظة تذكر أسماء، وكلما رأى قادما من سفر ظن أنه مسعود.. فلما أبطأ مسعود فى

الحضور خشى أن تكون أسماء قد أصيبت بسوء، واشتد به القلق وتسلط عليه الأرق فى ذات ليلة حتى ولم يكد يغمض عينيه فى ذات ليلة حتى سمع صوتا خارج الخيمة يشبه صوت مسعود، فهب من فراشه وناداه فأجابه ودخل، ودخلت فى أثره امرأة لم يعرفها محمد فى بادئ الأمر لضعف نور المصباح ولكنه ما لبث أن تبين أنها العجوز، فبغت وتذكر أسماء فقال: «ما وراءك يا خالة؟ أين أسماء؟ كيف تركتها وجئت وحدك؟»، قالت: «لقد أمرتنى أن أجئ، وسأقص عليك الخبر بعد أن أستريح». فخاطب محمد مسعودا قائلا: «وأين لقيتها يا مسعود؟ وما الذى أخرك كل هذه المدة؟»، قال: «طالت مدة البحث عن الركب وكأنهم غيروا طريقهم وترددوا فى مسيرهم فتشابهت على الجهات التى ظننتهم ساروا فيها فقضيت أياما فى ذلك حتى كدت أدرك البصرة.. ورأيت جيش أم المؤمنين عن بعد، ثم تحولت إلى طريق آخر فعثرت على هذه الخالة سائرة وحدها فسررت بلقياها وسألتها عن أسماء ومكانها فقالت إن الركب ساروا بها ولا تدرى أين هم وأن أسماء هى التى بعثتها إليك برسالة ولا تدرى ما بها وكنت عازما على مواصلة البحث عنها فمنعتنى، فجئت بها إليك»، فعجب محمد لذلك والتفت إلى العجوز وقال: «قصى علينا القصة»، فجلست وبعد أن استراحت قليلا، أخذت فى الحديث. فقالت: «كانت أسماء مريضة عند أم الفضل وهى فى شوق فى انتظار إشارة منك للسفر، وكانت مع ضعفها كلما تذكرت عليا والحرب والانتصار له تتشدد وتقوى حتى خيل لى أنها تشتاق للنزول إلى ساحة

الحرب دفاعا عن على.. لاعتقادها الراسخ ببراءته من دم عثمان، وعظم الأمر لديها خاصة يوم خروج أختك ورجالها من مكة قاصدين البصرة.. يطلبون الانتقام لعثمان، فبعد سفر أم المؤمنين بيوم أو يومين جاءنا رسول بكتاب زعم أنه منك، ولم تكد أسماء تتم قراءته حتى هبت من فراشها، وقد أشرق وجهها وقالت: هيا بنا يا خالة إلى المدينة فإن محمدا بعث من يحملنا إليه: فنظرت إلى الرسول فلم أذكر أنى أعرفه، فقلت له : أين الجمال والأحمال؟.. قال: هى خارج المدينة ، فخلوت بأسماء وحذرتها من المسير مع أناس لا تعرفهم، فقالت: إنها لا تبالى أيا كانوا وإنما كل همها أن تخرج من هذا السجن، فأطعتها وخرجنا والرجل يسير أمامنا حتي وصلنا المكان الذى أشار إليه الرسول فرأينا هناك هودجا على جملين وجمالا أخرى وبضعة رجال.. فركبنا والخدم فى ركابنا حتى أتينا مكانا تتشعب فيه الطريق إلى شعبين. وهناك رأينا أناسا مسلحين ينتظرون وصولنا بينهم شاب بلباس ثمين كأنه سيدهم. فلما وصلنا المفترق رأيناهم تحولوا من طريق المدينة إلى طريق البصرة قلت: إلى أين أنتم ذاهبون بنا؟ فقالوا: إلى حيث نشاء.. ونظرت إلى أسماء فى ضوء القمر فإذا هى ثابتة الجأش على الرغم من ضعفها، وقد كنت معها فى الهودج وعندما تحولنا إلى ذلك الطريق، أنزلونى من الهودج وأركبونى الجمل الآخر، فأطعت بالرغم منى».

أسماء فى الأسر

ثم قالت العجوز: «ومازلنا سائرين مسرعين طول ذلك الليل،

فلما أصبحنا نهض الركب وسرنا ووجهتنا العراق وأنا لا أدرى ماذا أعمل. وأظن أن أسماء لو رأت فائدة من الدفاع لفعلت، ولكنها وجدت نفسها عزلاء لا سلاح معها وحولها رجال مدججون بالحراب والسيوف والرماح، وقد أحسنت بسكوتها وتصبرها دون أن يبدو عليها الخوف، وقد كنت أراها كل مسافة الطريق ساكتة تتأمل.. كأنها تفكر فى طريقة للنجاة.. وقضيت اليوم الثانى وأنا أود أن أقترب من أسماء لعلنا نتشاور فى سبيل للنجاة فلم أستطع، فشكوت ألما فى بطنى وعجزا عن الركوب، فقال سيد القوم: اتركوها فى الطريق وسيروا. فصحت: دعونى أنظر ابنتى دعونى أودعها.. وأخذت أبكى ، فحملونى إليها فأجلستنى فى هودجها وأرخت ستائره ومشى الركب بنا، فلما خلونا سألتها عما فى نفسها فتنهدت وقالت: اعلمى يا خاله أنى لم أقع عمرى فى مثل هذا المأزق، وأنا أعلم الناس بما يحدق بى من الخطر ولكنى لا أرى فى الخوف نفعا. على أنى سأرى ما يكون من أمرهم فطالما كانت معاملتهم لى على هذه الصورة فإنى سأسير معهم وإذا تغيروا تغيرت، والظاهر أنهم سائرون بنا إلى معسكر أم المؤمنين، وأظن أن هذا الشاب المغرور من جملة رجالها وقد لاح لى أنه يطمع فى.. فليطمع ما شاء، أما أنا فإنى سائرة معه حتى أجد سبيلا للنجاة.

وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب فرفع الستر عن الهودج وقال: «انزلى من هذا الهودج، إن الجمل لا يستطيع حملك». فقالت له أسماء: «تمهل ريثما نصل إلى مكان نستريح فيه جميعاً فإذا لم تستطع هذه الخالة أن تركب معنا تركناها وأوصلناها إلى قافلة تسير بها».

فقال: «حسنا».. فوصلنا فى المساء إلى مكان فيه آبار وشجر، فنزلنا جميعاً ونصبوا الخيام، فطلبت أسماء الخلوة فتركوها وانتظروا فقضت هناك ساعة حتى خرجت وقد احمرت عيناها وبيدها منديل قطعته من قميصها دفعته إلى وقالت: «احتفظى بهذا الكتاب وادفعيه إلى محمد إذا لقيته».. فتناولته وخبأته بين أثوابى فى حذر.. فقالت لى: «أسرعى فى المسير إلى محمد».

فنظرت إلى الأفق فرأيت قافلة كأنها قادمة نحونا، فلما رأى أصحابنا القافلة قادمة تهيأوا للرحيل، فطلبوا إلى أن أركب أو أمشى فاعتذرت فقالوا : «إذن تبقين هنا.. قلت أبقى. ولكنى طلبت أن أودع أسماء، فأذنوا لى، حتى أقلع الركب وسار وهى تلتفت إلى وتبتسم وأنا أبكى. فظللت وحدى انتظر وصول القافلة فإذا هى غير قادمة نحوى بل سائرة فى طريق آخر فنهضت أسعى فى أثرها، ومازلت أسير تارة وحدى وطورا اصطحب راعيا أو ماشيا.. وطورا أركب وآونة أمشى حتى لقيت مسعودا على ما قصه عليك».

توارد الخواطر

فلما فرغت العجوز من الحديث قال لها محمد: «أين هو كتاب أسماء؟.. هاته». فمدت يدها إلى جيبها وأخرجته– ودفعته إليه فإذا هو قطعة من قميص أسماء، فاستأنس به وأدنى المصباح منه ونظر فإذا فيه كتابة بمداد أحمر، فطلب من مسعود أن يذهب بالعجوز إلى مكان تستريح فيه، وأغلق خيمته وجلس إلى جانب المصباح يقرأ فإذا فيه: «أكتب إليك بمداد من دمي إذ لا سبيل إلى

غيره وأنا فى صحراء قاحلة، وحولى أناس لا أدرى غرضهم من أسرى .. وقد علمت أنهم سائرون بى إلى معسكر أم المؤمنين بالبصرة، وأظنهم من رجال تلك الحملة.. لا تجزع يامحمد ولا تخف على أسماء فإنها – بعون الله– لا تخشى بأسا.. وإنما أكتب هذا إليك لأنبئك بحالى وأدعوك إلى عهد نعقده بيننا نجعله نذرا علينا، على أن تكون أعمالنا وحواسنا وقوانا كلها مكرسة لخدمة أمير المؤمنين ابن عم الرسول المتهم ظلما بدم عثمان، إنى أدعوك إلى التحالف على نصرة الإمام على والتفانى فى ذلك بكل حواسنا وعواطفنا، فإذا فرغنا منه على خير فكرنا فى أنفسنا والسلام.. أسماء».

ولم يفرغ محمد من تلاوة ذلك الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح إعجابا بأسماء.

عثمان بن حنيف

وفى اليوم التالى خرج يلتمس فسطاط الإمام على لعله يسمع خبرا جديدا، فدخل عليه فرأى فى مجلسه جماعة من الصحابة يتحدثون فيما هم فيه من الأحوال ويتشاورون فيما يعملون والإمام مقطب الوجه يفكر فيما حدث من الفتنة. وبينما هم على تلك الحال إذ دخل أحد الخدم فى هلع فسأله على: «ماذا وراءك ؟»، قال: «على الباب ركب قادمون من البصرة وفيهم رجل ملثم».. قال: «فليدخل كبيرهم». فدخل رجل ملثم الوجه حيا الإمام عليا وكشف عن وجهه، فإذا هو أحلط الوجه لا شعر فى لحيته ولا شاربه ولاحاجبيه ولا رموش عينيه فلم يتعرف على عليه وسأل:

«من الرجل ؟»، قال: «أنا عثمان بن حنيف نائبك على البصرة». فبغت على وقال: «ما الذى أصابك ؟»، قال: «وليتنى يامولاى نائبا على البصرة فلقينى الناس وسروا بخلافة الإمام على، ثم ما لبث أن سمعت أهل البصرة يتحدثون بِأمر، وأن خطابا ورد على بعضهم من أم المؤمنين تدعوهم فيها إلى الأخذ بثأر عثمان وأنها قادمة من مكة، فبعثت رجلين يسألانها عما تريده، فعادا وأخبرانى أن أم المؤمنين وطلحة والزبير مصرون على المطالبة بدم عثمان منك، وأنهما لم يبايعاك إلا كرها. ثم علمت أن عائشة جاءت ومعها رجالها فخرجت إليها بنفسى ومعى بعض أهل البصرة فلما وصلنا إلى المعسكر سألناهم عن غرضهم، فوقف طلحة وتكلم عن فضائل الخليفة عثمان، وحث على الأخذ بثأره، ثم أكد الزبير قول طلحة، فوقفت عند ذلك أم المؤمنين وألقت خطابا حرضت فيه الناس على المطالبة بدم عثمان. وكان لكلامها تأثير على كل من سمعها حتى أن جماعة كبيرة من رجالى مالوا إليها. ونشبت الحرب فقتل جماعة كبيرة من رجالى فأرسلت بعض رجالى لأرى ماذا يريدون فقتلوهم، ثم جاءوا الى وأخرجونى ونتفوا لحيتى وشعر حاجبى ورموش عينى كما ترى فجئت اليك»، فقال على: «إنا لله وإنا إليه راجعون وكيف أهل البصرة الآن ؟».. قال: «إن غالبيتهم مع أم المؤمنين» فأطرق على، وكل من فى مجلسه ينتظرون مايبدو منه فظل ساكتا حتى شعر الناس أنه يريد أن يخلو بخاصته، فخرجوا جميعا وفى جملتهم محمد بن أبى بكر، وقد ساءه تفاقم الأمر الى هذا الحد، ولم يكد يدرك خيمته حتى جاءه رسول على يدعوه إليه

فدخل وحياه، ثم قال له على «أتدرى لماذا دعوتك؟» قال: «خير إن شاء الله» قال: «هل سمعت بما فعلت أختك وطلحة والزبير فى البصرة؟ لقد أساءوا الى نائب البصرة وحضوا الناس على حربنا لأننا على زعمهم قتلنا عثمان، وأنت تعلم أن أهل الكوفة حزب كبير يهمنا ضمهم ليكونوا معنا فى هذه الحرب اذا كان لابد منها ، وقد انتدبتك أنت لتسير أنت ومحمد بن جعفر ابن أخي الى أبى موسى الأشعرى نائبنا علي الكوفة لحث الناس على نصرة الحق»، فوقف محمد وقال: «أنا طوع أمرك». قال على: «دعوهم وإنى أتأهب للمسير فى أثركما وأستعين بالله فى نصرة الحق»، فخرج محمد ومعه محمد بن جعفر وتأهبا للمسير..

الفتك بأسماء

أما أسماء فقد كان السبب فى أسرها أن أحد كبراء البصرة واسمه «سعيد»، شاهدها ساعة وقوفها فى العريش، ومخاطبتها مروان بتلك الجرأة، فوقعت من نفسه موقعا عظيما وتعلق قلبه بها. وكان من أهل الثراء والبذخ، فلما انفض المجلس سأل عنها فأخبره بعض خدم أم المؤمنين أنها مخطوبة لمحمد بن أبى بكر ، فحدثته نفسه أن يخطفها ويغريها بحبه ويتزوجها، وهو يعتقد أنها لا تلبث أن ترى وسامته وتعلم بجاهه وغناه حتى تهواه وتفضله على محمد، فيحظى بها وينتقم من محمد لعدائه لعثمان، فلما صاروا على مقربة من الكوفة، صبر حتى أسدل الليل نقابه .. وجاءها وهى مستلقية فى الهودج التماساً للراحة. فرفع ستار الهودج فانتبهت أسماء وجلست.. ولما رأت سعيدا استعاذت بالله.

أما هو فحياها بلطف فلم تجب فقال لها: «ألا تزالين تجافينني وأنت تعلمين أنى أسير هواك؟ .. ألا تتفضلين على بنظرة تدل على رضاك؟»، أرادت أسماء أن توبخه وتردعه ولكنها علمت أنها إن فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر، فتنهدت وظلت صامتة . أما هو فظن أن تنهدها دليل على تأثرها من كلامه ، فابتسم قائلاً: «بالله ألا رحمت قلبا قيدته بسلاسل هواك .. قولى يا أسماء قولى إنك راضية بى عبدا وأنا أكرس حياتى لخدمتك» . فقالت له أسماء بصوت رخيم : «إنى لا أراك أهلا للنزال» فقال: «وما أدراك يا فتاتى أني غير أهل لذلك؟»، قالت وهى تنظر إليه نظرة كلها توبيخ: «لأن الرجل لايرتكب جريمة التزوير ولا يخاطب فتاة لا يعرفها بل هو يعلم أنها تحب سواه» .. فأحنى الرجل رأسه عند سماع كلامها وقال: «صدقت أيتها العذراء .. لقد ارتكبت التزوير ولكنى ما فعلته إلا التماسا لقربك .. فأنا استغفرك على هذا الذنب»، قالت: «لقد أذنبت فى حق غيرى .. فإذا كنت رجلا فقابل محمدا واستغفره .. فإما أن يغفر لك وإما أن ينازعك ، فنرى من هو الرجل» .

محاولة اثيمة

فلما رأى منها هذا الإصرار ، وقف على قدميه بغتة وصاح فيها صيحة دوت لها الأودية فى ذلك الليل الهادئ وانتهرها قائلا: «أراك بالغت فى وقاحتك واستخففت بى وأنت تعلمين أنك أسيرة بين يدى» قال ذلك وأمسك بيدها

وجذبها إليه فشعرت كأن قوتها قد تضاعفت ، ونسيت ضعفها ومرضها وانتفضت من بين يديه وركلته برجلها فأرسلته ملقى على الأرض ثم أعرضت عنه.

فهب من سقطته وصاح برجاله ، فتجمهروا حول أسماء وقبض بعضهم على يدها والبعض الآخر على كتفيها .. فتملصت من بين أيديهم وصاحت فيهم قائلة : «عار عليكم وأنتم رجال مسلحون أن تتجمهروا على فتاة عزلاء لا سلاح معها» ، فصاح فيهم سعيد : «قيدوا هذه الخائنة وشدوا وثاقها» فقالت : «ما الخائن إلا أنت يا نذل .. أتظن أن القيود تقيد شيئا من حريتى ؟» ، قالت ذلك وهمت بعصا من عصى الهودج استلتها على الرجال، فتفرقوا من حولها تهيبا من منظرها ورفقا بها . فوبخهم سعيد واستحثهم فعادوا وتكاتفوا عليها، فعثرت رجلها بعقال الجمل فوقعت على الأرض فأسرعوا إليها وتجمعوا حولها وشدوا وثاقها وهى لا تبالى بما يفعلون ، وسعيد واقف ينتفض من شدة الغيظ .. وأمرهم أن يلقوها فى الهودج ويربطوها به ففعلوا .. فلما أيقنت بالخطر القريب ، ترقرقت الدموع فى عينيها وصاحت : «آه يا محمد أين أنت ؟» ، فلما سمعها سعيد تنادى محمدا ضحك ضحكة تدل على الغضب وقال : «لا تذكرى محمدا ، فلا أمل فى نجاتك من هذا الأسر» . ثم عاد إلى الملاينة والملاطفة ، فقال لها : «قولى إنك رضيت بى.. قولى إنك تحبيننى وكفى» فصاحت به قائلة : «لا .. لا .. لا أحبك . اذهب عنى يا شيطان» ، فقال لها: «لا بل أعيد النصح مرة ثانية

وأدعوك إلى حبى» . قالت : «لا أرانى ازداد إلا نفورا منك .. اذهب من أمام عينى» .. قالت ذلك وعادت إلى البكاء وهى تقول : «أين أنت يا محمد ؟ أرنى وجهك قبل الممات ولو لحظة» .. فلما سمعها تذكر محمدا اتقدت الغيرة فى قلبه وصمم على الفتك بها فوقف فوق رأسها ، فنظرت إلى السيف فأيقنت أنه قاتلها لا محالة فصاحت : «أين أنت يا محمد يا ابن أبى بكر ؟» ،.فقال سعيد : «أتظنين أنى اقتلك الآن ؟ لا لا تعللى نفسك بهذه الأمنية ، فإننى سأميتك صلبا» ، وأشار إلى بعض الوقوف من رجاله فرفعوها على الأرض ، وأوقفوها إلى شجرة السنط ألصقوا ظهرها بها وشدوها بحبال مجدولة من الليف، وتركها سعيد مشدودة إلى الشجرة وذهب هو ورجاله يلتمسون الراحة أو النوم ، وظلت هى مصلوبة، وهى غارقة فى بحار الهواجس ، ..وأخذت تنظر إلى النار فرأتها قد أخذت فى الخمود فخشيت أن تنطفئ ولا يبقى ما يؤنسها .. على أن خمودها جعل الأفق أكثر ظهورا فلما خمدت النار ظهر فى أطراف الأفق بعض الأشباح ، وكانت لفرط قلقها تحسب الأشباح أناسا قادمين لإنقاذها .

باب الفرج

وفيما هى تنظر إلى الأفق ، رأت أشباحا تتحرك ، وعندما رأى سعيد الأشباح عند الأفق علم أن ناره ستهديهم إليه فأمر بإطفائها . فلما رأت أسماء أن الرجال يهمون بإطفاء النار أيقنت أنهم خائفون ، واستبشرت بالفرج .. ثم رأت سعيدا قادما نحوها وصاح وهو يحسب أنها لا ترى أحدا قادما ، قائلا : «هل لان قلبك الآن

؟.. قولى .. أجيبى .. إن حياتك بين شفتيك ، فإما أن تصيرى سعيدة وإما أن يجرى دمك على جذع هذه الشجرة».. فلم تجب ، وخشى إذا انتظر جوابها أن يصل الركب فشرع السيف بيده وصاح بها : «قولى حالا .. فإما أن أسمع صوت قبولك ، وإما أن تسمعى صوت سيفي على عنقك» .. فعظم عليها التهديد وهجرها التعقل ، فقالت : «لا .. لا .. لا أرضى .. فاضرب عنقى والله يجزى الظالمين ..» ، ثم صاحت : «آه يا محمد يا ابن أبى بكر أين أنت ؟ أه لو تعلم مصير أسماء» ، فلما سمع سعيد رفضها نزل بالسيف على عنقها وهو لا ينوى قتلها.. فوقع السيف على جذع الشجرة فوق كتفها فأصاب الحبل الذى يشد ذراعيها فانحل الوثاق وهى لا تدرى ، . فلما رأت وثاقها محلولا تحولت إليه كالأسد الكاسر لفرط غيظها منه.. وصاحت فيهم : «أليس فيكم من يرعى الذمام ويخاف الله ؟» ، قالت ذلك ولاحت منها التفاتة فرأت الركب قد أصبحوا بالقرب منها ، ولم تكد تصيح تلك الصيحة حتى سمعت صوتا كالرعد القاصف وقع فى أذنها ألا وهو صوت محمد بن أبى بكر يقول : «لبيك يا أسماء لقد جاء الفرج .. اخسأوا يا أنذال» ، أما هؤلاء فحين سمعوا صوت محمد ورأوا معه رجالا آخرين ، ركنوا إلى الفرار ، وقد تركوا متاعهم وبعض جمالهم والهودج .أما أسماء فإنها لبثت مدة صامتة تحسب نفسها فى حلم حتى دنا منها محمد وناداها : «أسماء ..» فقالت : «محمد .. أين كنت يا حبيبى لعل الله قد بعثك بمعجزة لإنقاذى ؟» ، قال : «ما الذى أصابك ؟» ، قالت : «لا بأس على ،

غير جرح خفيف فى ساقى أصابنى وأنا أدافع هؤلاء اللئام» . قالت ذلك والتفتت فرأت مع محمد رجلا آخر لم تعرفه ، فخجلت لما أبدته من عاطفة الحب .. فأدرك محمد ما فى نفسها ، فقال : «لا تجزعى من رفاقى فهذا محمد بن جعفر ابن أخى أمير المؤمنين وهؤلاء خدم سائرون فى ركابنا إلى الكوفة ، وقد جئنا فى مهمة لخدمة أمير المؤمنين » . فجلست ومحمد بن جعفر يعجب لما يبدو من همة تلك الفتاة ، وقضوا بقية الليل فى الأحاديث . وقبل الفجر أغمضت أجفانهم ساعة فاستراحوا فلما ظهر الصباح وأفاقوا من نومهم ، نحن الآن ذاهبون إلى الكوفة وهى على مقربة منا .. فهيا بنا إليها نقضى مهمتنا ، ثم نذهب بك إلى المدينة تقيمين فيها ريثما تنقضى الحرب» .. فقالت: « كيف تدعونى إلى الإقامة فى المدينة وقد عاهدت نفسى على نصرة الإمام جهد طاقتى ؟» ، قال : «لقد جاهدت وسعك ، وأنت الآن مريضة» ، قالت : «لا بأس على بإذن الله» ، قال : «فلنذهب إلى الكوفة .. ثم نرى ماذا يكون» قالت : «لا أرى فى ذهابى إليها فائدة» .. «أنت تسير فى مهمتك .. وأما أنا فإنى أسير إلى أختك أم المؤمنين فى البصرة عسى أن أقنعها ببراءة الإمام على ، فتكف عن الحرب حقنا لدماء المسلمين» ، . قال : «إذا كان لابد من ذهابك إليها ، فإنى أرسل معك خبيرا من رجالى يسير فى خدمتك حيث تشائين» . قال ذلك ونادى مسعودا وكان فى جملة من صحبه فى هذا السفر فجاء مسرعا فقال محمد : «هذه أسماء .. إنها سائرة إلى البصرة فأوصلها إلى معسكر أم المؤمنين وعد إلى

بالخبر فى الكوفة» . وركبوا جميعا .. فسارت أسماء ومسعود نحو البصرة ، ومضى الباقون فى الكوفة ..

خطر آخر

سارت أسماء ومسعود سائر على جمله أمامها ليهديها إلى الطريق ، فمضى معظم النهار ولم يستريحا ولا تناولا طعاما . فلما كان الغروب سألته أسماء عن البصرة ، فقال : «إنها على بضع ساعات منا ، فأرى أن نبيت هنا الليلة ونذهب صباحا إلى المدينة» ، قالت : «لا صبر لى على الانتظار .. هلم بنا» . فلم يستطع مسعود مخالفتها . واتفق مع ذلك هبوب الريح وتلبد الغيوم ، فلم يعد يرى الطريق أمامه ولا النجوم حتى يهتدى بها .. وكان مسعود مشغول البال، وقد عجب لشجاعة أسماء وتحملها مشقة السفر . ثم سمع فجأة طنين سهم فى الجو مر أمام عينيه ، فارتعد وصاح : «من ذا الذى يريد أن يغدر بنا؟» ، ولم يتم كلامه حتى سمع صوت أسماء تقول : «أخ .. قتلتنى .. قتلك الله» . فعلم أن السهم أصابها فتحول إليها وقال : ما بالك يا سيدتى .. ما الذى أصابك ؟» ، قالت : «أصابنى سهم فى جنبى وأظنه سيقتلنى» . فترجل عن جمله وأناخ جملها فإذا هى تسند جنبها بيدها والسهم لا يزال مغروسا فيه فنزعه بخفه فصاحت صيحة دلت على شدة ألمها ، فتحير فى أمره.. ووضع يده على جرحها وضغطه بكفه ، ثم سأل عن حالها فقالت : «إنى مقتولة لا محالة» ، .. فلم ير مسعود خيرا من أن يحملها على جمله ويسرع ليعالجها فى دير صادفه على الطريق.. فحملها خلفه وساق جمله وقاد جملها وراءه

، وأسرع إلى الدير فإذا هو مقفل .. فتذكر أنهم يعلقون فوق أبواب الأديرة أجراسا يدقها من يجئ طارقا ، فاهتدى إلى الحبل فشده فدق الجرس بعنف وصبر، فسمع صوتا جهوريا يقول : «من الطارق ؟» ، فأجاب مسعود قائلا : «افتح أنشدك الله .. أسرع إلى إغاثتنا» .. فقال : «من أنت ؟» قال : «إننا غرباء فى أشد الحاجة إلى عون . افتح رعاك الله» . قال ذلك وتريث .. فلم يعد يسمع صوتا ، وانصرف فكره إلى أسماء وهى مطروحة عند الباب تئن أنينا عميقا . فأمسكها من يدها، فرآها باردة ، فزاد اضطرابه وهم أن يصيح بيواب الدير ، فرأى رأسا عاريا وقد خطه الشيب، قد أطل من الكوة والمصباح فى يده ينعكس نوره على لحيته البيضاء ويقول : «أصدقنا أيها الطارق .. من أنت ؟» فصاح مسعود قائلا : «إننا غرباء ومعى مريض مشرف على الموت» .. فأسرع الراهب بخفة رغم شيخوخته ، وفتح الباب، وساعد مسعودا فى نقل أسماء إلى أقرب غرفة هناك ، وأجلسها على الفراش .. وخف الراهب إلى رئيس الدير لينبئه بالخبر ولم تمض وهلة حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم ، ولكن عينيه مازالتا تتقدان نورا وصحة ، وقامته معتدلة تدل على نشاطه، فتقدم الرئيس إلى الفتاة وهى ملقاة على الفراش وسأل مسعودا عما بها ، فقص عليه الخبر مختصرا ، فأدارها على جنبها الصحيح وأخذ فى كشف الجرح ، وانشغل الرئيس والراهب يغسل الجرح وتضميده ، وأمر بلبن فغسله به ثم صب عليه ماء مقدسا يحتفظون به لمثل هذه الحال ، ربطه وأمر بملاءة من نسيج الصوف فغطاها التماسا للدفء ، ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه

بزيت من مصباح الدير المضيء أمام صورة المسيح وهو يدعو الله أن يعجل بالشفاء .. وأفاقت أسماء هنيهة ، ولكنها لم تقل شيئا ثم عادت إلى الأنين . وكان رئيس الدير وهو يغسل وجه الفتاة يتأملها ويتفرس فى ملامحها، كأنه يتذكر شخصا يشبهها .. فلما فرغ من تضميد الجرح تحول إلى مسعود فسأله : «من الفتاة ؟» ، قال : «أنها فتاة لبعض كبار الصحابة» ، ولم يزد .. فأعاد الرئيس النظر إليها وقال : «إذن فهى مسلمة ؟» ، لكنه لمح فى صدرها حجابا اعتاد النصارى تعليقه فى صدورهم ، وكان صدرها مكشوفا فرأى عليه رسم الصليب فالتفت إلى مسعود وقال : «ولكنى أرى عليها بعض شارات النصرانية» ، فمل مسعود من تدقيقه ، ولم يكن يهمه ساعتئذ إلا أن يطمئن على شفائها ، فقال : «لا أدرى يا سيدى سوى أنها مسلمة فلعل لتلك الإشارة سببا لا أعلمه» ، فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر إلى وجهها وطورا يطرق متأملا كأنه يبحث فى ذاكرته عن شخص يشبهها .

ثم نظر إلى مسعود وقال له : «امض يابنى إلى غرفة الضيافة إذا أردت طعاما، ثم أذهب إلى النوم مطمئنا .. فلن يمضى على هذه الفتاة قليل حتى تصحو وتتحسن صحتها بقوة الله وبركة صاحب الدير» ، فقال مسعود : «إنى لا أشعر بالجوع ولست فى حاجة إلى النوم ، وأفضل البقاء لأرى ما يتم لها» .

وبعد برهة أمر الرئيس الراهب بشىء ، فخرج الراهب ثم عاد

وبيده كتاب ضخم فتحه فقرأ وتمتم ، ثم ركع الاثنان فعلم أنهما يصليان . وحينما فرغا من الصلاة وقاما ، دنا الرئيس من أسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملها ، ثم جلس إلى جانبها ولبث ينتظر ما يبدو منها . وبعد هنيهة تحركت كأنها تتحول عن أحد جنبيها إلى الآخر وما كادت تفعل ذلك حتى صاحت من الألم .. فسر مسعود لصياحها لعلمه أنه يدل على أنها أفاقت ، فأومأ الرئيس إلى مسعود بيده وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ، كأنه يقول : استبشر بالخير إنها قد أفاقت، فانبسط وجه مسعود وظهر البشر عليه وقال لها : «ما رأيك ؟ هل أذهب لأخبر مولاى محمدا بما حدث ؟» ، فقطعت عليه الكلام وقالت : «لا ، لا .. لا تفعل لأنى أخشى إذا علم بما حل بى أن يسرع إلى ويهمل مهمته ، وهى تتعلق بمصلحة المسلمين عامة ، وزد على ذلك أنى بحمد الله مستريحة لا أخالنى بعد أيام قليلة إلا راكبة جملا أو جوادا إلى معسكر أم المؤمنين أؤدى المهمة التى انتدبت نفسى لها ، فاذهب إليه لعله يحتاجك فى شىء ، لكن لاتقل له شيئا» ، ثم التفتت إلى أيقونة معلقة أمامها شغلت نفسها بالنظر إليها.. أما مسعود فإنه بات إلى الصباح التالى فرأى أسماء قد تحسنت حالها .. فارتاح باله وودعها ومضى.

عود إلى السر

أما رئيس الدير ، فأخذ يجهد فكره فى تذكر ما يعرفه عن أسماء أو عمن يشابهها. فبعد أن خرج لوداع مسعود عاد إلى

أسماء ، وكانت قد جلست فى الفراش . فلما دخل الرئيس نظرت إليه وتأملت وجهه وقالت له : ألا تذكر يا حضرة الأب المحترم أنك رأيتنى قبل هذه المرة ؟» ، قال : «هذا ما شغل بالى منذ أتيت بالأمس ، ولكنى لا أذكر أين رأيتك ؟» ، قالت : «أظنك رأيتنى فى دمشق العام الماضى» ، فلما سمع قولها وتفرس فيها ، وهو يقول : «نعم نعم .. شاهدتك مع والدتك وقد جئتما إلى كنيسة مارى يوحنا فى دمشق لزيارة القس مرقس الشيخ البار .. نعم أذكر ذلك .. أين هى والدتك ؟» .

فلما سمعت ذكر والدتها ترقرقت الدموع فى عينيها ، فأدرك الرئيس أن هناك أمرا محزنا دعاها إلى البكاء ، فسكت. فقالت وهى تبكى : «إنها ماتت ..» ، فأطرق الرئيس برهة ونظر إلى الراهب ، وأشار إليه أن يخرج من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس بأسماء جعل يخفف عنها ويعزيها حتى هدأ روعها ، ثم قال لها : «وهل عرفت أباك ؟» ، فقالت : «لا يا سيدى لم أعرفه .. فكيف عرفت أنت أن والدي مجهول» ، قال لها : «إنى لا أعرف من هو والدك.. ولكنى أعلم أن الذى كان مع والدتك يوم رأيتك فى كنيسة مارى يوحنا بدمشق ليس هو والدك الحقيقى» ، ثم قال : «أتذكرين يوم جاءت والدتك إلى كنيسة مارى يوحنا فى دمشق وكنت أنت معها فتركتك مع والدك خارجا ودخلت هى لوداع القس مرقس قس تلك الكنيسة ، هل تذكرينه ؟» ، فقالت أسماء : «نعم أذكر ذلك الشيخ الهرم» ، قال الرئيس : «وقد كنت أنا يومئذ زائرا عنده، فلما عاد إلى رأيت

على وجهه آثار الدهشة .. فقلت : ما بالك يا حضرة القس ؟ ، فقال : إن لهذه المرأة سرا عهدت به إلى منذ بضع وعشرين سنة وهى الآن ذاهبة إلى المدينة لتبوح به هناك ، وأخشى لضعفها ومرضها أن تموت قبل وصولها .. فإذا حدث ذلك ظل الأمر مكتوما عندى وحدى ، وأرانى قد شخت وربما دنا أجلى فيذهب السر بموتى ، ثم قال لى : إن هذه الفتاة التى تراها مع هذه المرأة هى ابنتها ، وأهل دمشق يظنون هذا الرجل والدها ، فقلت: ومن هو والدها إذن؟، قال: إن والد هذه الفتاة الحقيقى هو أحد كبار المسلمين هناك ..» ، فبغتت أسماء وخفق قلبها ، فصعد الدم إلى وجهها فتورد بالرغم من ضعفها . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهفة : «وما اسمه ؟» ، قال : «لا أعلم يا ابنتى فالذى فهمته أن والدك الحقيقى إنما هو من كبار المسلمين فى يثرب» ، فبهتت وقد عاد لونها إلى الاصفرار للهفتها وتأثرها ، ثم قالت : «ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك وأنا لا أعرف يثرب قبل هذه المرة ولم أسمع والدتى تذكرها ؟» ، قال : «علمت أن والدتك كانت تبالغ فى إخفاء هذا الأمر عن كل إنسان لأنها رومانية الأصل ، حملها بعض قواد المسلمين الذين فتحوا الشام فى جملة الأسرى وأهداها إلى والدك .. فمكثت عنده بضع ليال ثم قدم عليها أخوها (خالك) خلسة وحرضها على الفرار ففرت إلى دمشق ولم تستطع الظهور خوفا من العيون فاتجهت إلى مصر . فظهر حملها هناك وقبل أن تضعك طلبت من القس مرقس ..

وكان فى كنيسة «المعلقة» بمصر يومئذ ، وكانت تعرفه منذ كان فى الشام وأودعته هذا السر وأخبرته عن والدك . ثم جرت الحروب بمصر ففتحها العرب وقتل خالك ووقعت والدتك فى جملة الأسرى ثانية وأنت طفلة .. فتزوجها يزيد الذى تعرفينه وأقام بها فى دمشق وأنت معها » . ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت الدهشة على أسماء ، ولبثت صامتة وهى لا تزال ترجو أن يكون الرئيس يعرف اسم والدها فتوسلت إليه ثانية أن يخبرها به . فأكد لها أنه لا يعرف اسمه ثم قال: «إذا لقيت القس مرقس فى دمشق ، فإنه يطلعك عليه وربما أطلعك على أمور كثيرة .. فأسرعى إليه حال شفائك قبل أن يقضى أجله لأنه شيخ طاعن فى السن» . وكانت أسماء قد تعبت من الجلوس . فلما يئست من استطلاع اسم والدها من الرئيس زاد تعبها ، فألقت نفسها على الفراش.

موقعة الجمل

قضت أسماء فى ذلك الدير أياما ، وهى تتقلب على فراش الألم ، لا تدرى إذا شفيت هل تسير إلى دمشق لمقابلة القس ؟ أو إلى أم المؤمنين للقيام بمهمتها ؟ واستولى عليها القلق لأنها أحست بأنها سجينة فى الدير ، فما استطاعت الوقوف حتى خرجت إلى فناء الدير .. وصعدت ذات يوم إلى سطح الدير ، فأطلت منه على سهل واسع رأت فى آخره معسكرا علمت أنه معسكر أم المؤمنين فى ضاحية البصرة . فجعلت تفكر فيما تعتزمه من مخاطبة أم المؤمنين ومازالت غارقة فى مثل هذه

الهواجس حتى مالت الشمس إلى المغيب .. فأحست برعشة، فتحولت تلتمس الدفء فى الفراش .. مخافة أن يضرها البرد .

وباتت تلك الليلة وهى تتوقع أن تصبح بخير فتقرر هل تسير إلى معسكر أم المؤمنين أم إلى الشام .. فلما أصبحت شعرت بانتعاش ولكنها لم تأنس من نفسها القدرة على السفر حتى ينتهى التئام الجرح وتشتد قوتها ، فالتمست من رئيس الدير أن يأذن لها فى الخروج للرياضة فى بستان الدير ، فأذن لها فخرجت، لكنها ابتعدت عن الدير مسافة طويلة وهى لا تدرى .. فانكشف لها من الأفق وراء التلال فرأت خياما وأعلاما وجمالا وعبيدا . ولم تكد تتفرس فى ذلك الحشد العظيم حتى علمت أنه معسكر الإمام على .. فخفق قلبها ومشت قليلا . وجعلت تتأمله ونفسها تحدثها بالذهاب إليه لعلها ترى محمدا فيه أو تسمع شيئا عنه .. على أنها تشاءمت من قدوم جيش الإمام لأنه دليل على اقتراب الحرب .

وبينما هى فى لجة الأفكار إذ هى سمعت صوت رجل يزجر جملا على مقربة منها ، فالتفتت فإذا ببعير جامح يعدو ورجل يركض فى أثره ، يستنجد بالناس ليساعدوه فى القبض عليه . فلم يسع أسماء السكون على ضعفها، فاعترضت الجمل . فظل مسرعا فركضت إليه وتعلقت بعنقه ، فظل راكضا وأسماء ممسكة بعنقه بكلتا ذراعيها كأنها تتسلق للصعود على ظهره . ولكنها ما لبثت أن شعرت بانهيار قواها وأحست كأن شيئا تمزق فى مكان الجرح ، فانفتح واشتد بها الألم . وحينئذ كان

البعير قد خفت سرعته ، فأدركه صاحبه وأمسك بعنقه .. فسقطت أسماء إلى الأرض لا تعى من شدة الألم . وكان صاحب البعير شابا من عبد قيس ، وهى من القبائل التى أنجدت عليا وجاءت معه للحرب . فلما رأى أسماء ساعدته فى القبض على بعيره ، ثم رأى ما ألم بها من التعب حتى سقطت خائرة القوى .. دنا منها وأجلسها وقد بهره جمالها وأعجبته هيئتها . ثم أفاقت ويدها ضاغطة على جنبها تتقى الألم . رأت ذلك الغريب بجانبها فعلمت أنه صاحب البعير . أما هو فحالما نظرت إليه لمس فى نظراتها هيبة أوقفته عند حده .. أما هى فتجلدت واغتنمت تلك الفرصة لاستطلاع حقيقة ذلك الجند فقالت له : «ممن أنت ؟» قال : «من عبد قيس» ، قالت: «ومن هؤلاء الجند الذين نراهم أمامنا ؟» ، قال : «أما سمعت بما قام بين الإمام على وأم المؤمنين ؟ » ، قالت: «سمعت وعلمت .. وهل هذا الجند هو جند الإمام على ؟» ، قال : «نعم ونحن نجدته لثقتنا بفضله على سائر الناس » .. قالت : «وكم عدد رجاله ؟» ، قال : «عشرون ألفا بين راجل وفارس» ، قالت : «أتعلم عدد جند أم المؤمنين ؟» ، قال : «أظنهم ثلاثين ألفاً» ، فبهتت أسماء فى الفرق بين الجيشين ، والألم يشتد ويكاد يمنعها من مواصلة الكلام ، على أنها تشددت وقالت: «لمن تظن الغلبة تكون؟» . فابتسم الشاب وقال : «لاحاجة بنا إلى الظن .. والأمر قد قضى أمس .. فقد تم الصلح وانصرف العداء» ، فقالت : «وكيف ذلك؟» ، وشعرت عند سماع خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض ،

فمشت وهى تخاطب الرجل حتى جلست على حجر تحت شجرة وأسندت ظهرها إليها ، وضغطت على الجرح بكفها فوق أثوابها فأراد الرجل أن يشرح لها أصل العداء ، لظنه أنها خالية الذهن من خبره .. فابتدرته قائلة : «أخبرنى كيف تم الصلح ؟» ، فأجابها على سؤالها قائلا : «إن جيشنا وصل إلى هذا المكان أمس ، فلما تقابل الجيشان خرج من جيش أم المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يلتمسان المبارزة ، فخرج إليهما الإمام على ونحن ننتظر عاقبة ذلك اللقاء لأنه سيكون قاضيا إما علينا وإما لنا.. فإذا هم وقوف يتخاطبون، وعلمنا بعد رجوع الإمام أنه لما لقيهما قال لهما : «ألم أكن أخا فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دمكما؟ ألم تبايعنى يا طلحة ؟» ، قال «بايعتك والسيف على عنقى» ، وقال على للزبير «وأنت ؟» ، قال : لا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به منا» . فقال له على : «أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لك لتقاتلنه وأنت له ظالم» ، فقال الزبير: «اللهم نعم ، والله لا أقاتلك أبدا» ، وهكذا عاد الإمام إلينا بالخبر وتوسمنا خيرا من ندم أولئك على عملهم . ثم علمنا أن الزبير لما رجع من ساحة المبارزة سار توا إلى أم المؤمنين فقالت له : «ماذا تريد أن تصنع ؟» ، قال : «أريد أن أدعهم واذهب واعتذر بأنه حلف ألايقاتل عليا» ، ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره فتم الاتفاق على الصلح[١] وبتنا ليلتنا أمس

١ - المؤلف هنا يعرض صورة طيبة للصحابة يغلب عليهم الصلح حين يتواجهون بالعتاب يغلبون المصلحة العليا .

والقلوب هادئة» ، فلما سمعت أسماء كلام الرجل أشرق وجهها ونسيت ألمها وضعفها وقالت : «بشرك الله بالخير يا أخا عبد القيس» ، وأردات الاستفهام عن محمد فقالت : «وهل جاء أهل الكوفة لنصرة الإمام ؟» ، قال : «لقد جاءوا بعد أن ترددوا كثيرا» ، فأدركت أسماء من خلال ذلك أن محمدا فى معسكر الإمام على وكانت قد تعبت من الجلوس على الحجر ، فنهضت تلتمس الدير لمداواة الجرح لأنها شعرت وهى قابضة عليه أن الدم يسيل منه. فأراد الرجل مساعدتها فى المشى فأبت . فرافقها حتى دنت من الدير، فودعها وخرج بجمله أما هى فالتمست الغرفة فلقيها الرئيس عند الباب .. فسألها عن حالها، فقصت عليه حديث الجمل ووقوعها . ففهم بالجرح فأعاد تضميده ، وبشرها بأنه لاخوف منه . فلبثت تفكر فيما سمعته ، وكانت كلما تصورت إتمام الصلح يكاد قلبها أن يطير فرحا لتخلصها من مصائب كثيرة وحقن دماء الناس .. ثم تذكرت ما سمعته من الرئيس عن والدها فانقبضت نفسها مخافة أن تضيع حقيقة خبره ، فصممت على أن تسافر إلى دمشق حالما تستطيع الركوب .. حتى تتحقق من شخصية والدها من القس الشيخ.

الحرب

قضت أسماء أياما وهى تتوقع فى كل يوم أن ترى محمدا آتيا لمشاهدتها فى الدير لعلمها أن مسعودا لابد أن يخبره بما أصابها فكيف يقيم على مقربة منها ولايسأل عنها . فلما مضت أيام ولم يأت ، أيقنت أن مسعودا لم يره بعد ذهابه من الدير.

وكان الجرح قد التأم ، فلم تر بدا من محاولة لقاء محمد لتخبره بعزمها على المسير إلى دمشق ، وتستعين به فى الحصول على دابة تركبها، وخادم يسير معها ، ولكنها عزمت على استقدامه .. فكتبت بطاقة بهذا الشأن واستأذنت رئيس الدير فى إرسال أحد خدمه الأذكياء كي يسلم الورقة ، فخرج الرسول ، وجلست هى فى فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معه ، وأعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما فى نفسها وقد فرحت بالصلح لأنه يقرب موعد الزواج.

قضت ساعة على هذه الحال ، ثم صعدت إلى سطح الدير وإذا بها ترى رسولها قد وصل وهو يلهث من شدة الجرى . فقالت : «ما وراءك ؟» قال : «ما إن خرجت من الدير إلى الجهة التى رسمتها لى ، وحتى رأيت النبال تتطاير فى الجو .. فلما أشرفت على ورأيت الحرب محتدمة» بين الإمام على والسيدة عائشة، وكانوا قد أبرموا صلحا فنقضوه» ، فقالت : «ألم تلق محمدا ؟» ، قال : «وكيف ألقاه وأنا لم أستطع أن أدنو من ميدان المعركة مخافة أن تصيبنى النبال فأموت ولا يبقى من يرجع إليك بالخبر» ، فثارت الحمية فى رأس أسماء وخرجت إلى غرفتها فبدلت ثيابها بثياب تشبه ثياب الرجال، والتفت بعباءة وغطت رأسها بكوفية وركبت الجمل وولت وجهها نحو معسكر أم المؤمنين . وكان الوقت ضحى. ولم تبعد عن الدير إلا قليلا حتى أشرفت على المعركة .. فأدركت أن النصر للإمام على لأنها

رأت رجاله يتقدمون وأولئك يفرون ، وهم بين جريح وقتيل ، . فأجالت بصرها لعلها ترى فسطاط عائشة لتسرع إليها وتخاطبها فى الكف عن القتال ، فلمحت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارسا آخر علمت أنه طلحة وقد رماه مروان بسهم فى رجله، ثم رأت طلحة وقد ترك الجيشين يقتتلان ، فعلمت أنه ذاهب إلى البصره لجرح بليغ أصابه ، ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وهما من جند واحد . على أنها أولت فعله إلى طمعه فى الخلافة لبنى أمية لزعمه أنها إذا خرجت من يد الإمام على وكان طلحة حيا طمع هو فيها ، وربما طمع فيها الزبير.. وأما إذا قتل هذان فلا يبقى من يطالب بالخلافة وتؤول إلى بنى أمية [1] .

هودج أم المؤمنين

ووقفت أسماء تتأمل حركات الجيش وتسمع ضجيج الناس ومقارعى السيوف والرماح وصهيل الخيل . وبينما كانت تجيل البصر رأت فى معسكر أم المؤمنين فسطاطا كبيرا علمت أنه فسطاط أم المؤمنين ، ولكنها لم تر ازدحاما حوله فارتابت فى أمره ، ثم لمحت جمعا متكاتفا حول هودج فوق بعير، فعلمت من لون الهودج وشكله أنه هودج عائشة فساقت جملها نحوه ، فلم يسعفها فى الجرى ، فرأت فرسا تائها خارج المعركة ، وقد قتل صاحبه ، فأسرعت إليه وركبته بأسرع من لمح البصر تلتمس الهودج . ولم تكد تصل إلى المعركة ، حتى رأت فارسا

١ - الأستاذ جرجي زيدان هنا يلقي اللوم في إيقاع الفتنة علي مروان الذي سعي خفية إلي الإيقاع بالفريقين في موقعة الجمل .

خارجا منها لا يلتفت وراءه وعرفت أنه الزبير فتذكرت أنه أقسم ألا يحارب عليا ، فقالت فى نفسها : قد فر الزعيمان ولا أخال أم المؤمنين إذا علمت بذلك إلا أن تأمر بالكف عن القتال . فأسرعت إلى وسط المعركة لا تبالى بما يتساقط عليها من النبال أو يعترض فرسها من جثث القتلى والجرحى ، ولم تقترب من الهودج حتى سمعت أم المؤمنين تصيح بصوتها الجهورى وتنادى أحد رجالها ، وقد مدت يدها من الهودج وفيها المصحف وهى تقول : «ادع الناس إلى هذا المصحف» [1] فلم يكد الرجل يتناوله حتى أصيب بنبل فقتل . وكانت أسماء قد وصلت إلى الهودج فرأت الرجال حائمين حوله وعائشة تقول : «أيها الناس العنوا قتلة عثمان» فترجلت أسماء وأقبلت إلى الجمل ، فرأت الهودج ونادت أم المؤمنين ، فعرفت صوتها فأذنت لها بالصعود على الجمل ، فتعجبت أم المؤمنين لوجودها أما أسماء فترامت عند قدمى أم المؤمنين وهى تقول والدمع ملء عينيها: «أشفقى يا أماه على أولادك ، احقنى دماءهم. مرى بالكف عن القتال ، إن السلام بين شفتيك وأنت أم المؤمنين وزوج رسول الله . واعلمى أن طلحة والزبير اللذين أضرما نار الفتنة قد فرا من المعركة . مرى بالله رجالك بالكف عن القتال» ، وكانت أسماء تتكلم بخشوع وتذلل . وكانت عائشة شديدة التأثر ، فنظرت إلي أسماء وقد أثر فيها كلامها وقالت :

١ - هذه العبارة التي أوردها جوّرجي زيدان تشير إلي أن عائشة رضي الله عنها إنما خرجت في البداية لجمع الناس لا للحرب .

«لقد كنا على موعد للصلح ، ولسنا ندرى ماذا حملهم على نقضه» قالت : أسماء: «هم يزعمون أنكم الناقضون ، يظهر أن فى الأمر دسيسة» .. قالت عائشة وقد ملت الجدال: «لقد قضى الأمر ، ولم يعد الرجوع ممكنا ، فلا تلتمسى منى ذلك» .. فصمتت أسماء وعادت عائشة إلى استنهاض القبائل حتى أصبح كل من بقى من رجالها يدافع عن جملها ..

وودت أسماء النزول من الهودج ، ولكنها لم تجسر تهيبا من عائشة . ثم سمعت صوت على يقول : «اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا» ، ولم يكد يتم أمره حتى أحست اسماء بسقوط الجمل وهو يصيح من الألم فعلمت أنهم أصابوه . فهمت بالخروج من الهودج .. ولكنها أطلت قبل ذلك ، فرأت كل من حوله من الرجال تفرقوا وعلى يقول لرجاله : «أرسلوا من ينادى فى الناس ألا يجهزوا على جريح» ، ثم قال : «احملوا هذا الهودج من بين القتلى» ، فحملوه وأسماء لاتزال مع أم المؤمنين ، وأم المؤمنين غافلة عنها لعظم ما ألم بها . وكانت أسماء تنظر إليها وهى تهاب أن تتكلم خشية أن تسمع ما يغضبها وربما لا تستطيع جوابا . ثم سمعت عليا يقول : «يا محمد يا ابن أبى بكر أشرف على أختك وانظر هل أصيبت بجراح ؟» ، فلما سمعت ذكر محمد وما أمره به على ، لبثت تنتظر أن تراه مطلا من الهودج وقلبها يخفق .. أما هو فلما أدخل رأسه فى الهودج ورأى أسماء مع أخته انذهل ولكنه تجلد ، ولم يكد يتكلم حتى

سمع أخته تقول : «من أنت ؟» ، قال : «أخوك» ، قالت : «الحمد لله الذى عافاك» ، وأشار محمد إلى أسماء أن تخرج ، فخرجت ونظرت إلى ما حولها فرأت الأرض قد خلت من الناس غير من قتل أو قطعت ساقه أو جرح جرحا بليغا فلا يستطيع المسير . وسمعت أنين الجرحى ورأت الدم يسيل فى قنوات والخيل والجمال سارحة بعضها يعرج وبعضها يصرخ من الجراح ، ، ثم رأت عليا يدنو من هودج أم المؤمنين ويقول: «كيف أنت يا أماه ؟» ، قالت : «بخير» ، قال : «يغفر لك الله» ، قالت : «ولك» ، ثم أمر على أخاها أن يدخل بها البصرة ريثما تستريح . وفى هذه الأثناء رأى أسماء واقفة فعرفها .. فلما رأته ينظر إليها همت بيده فقبلتها واحمرت خجلا ، فقال : «أهلا .. أين كنت يا أسماء ؟» فسمع على عائشة تقول من داخل الهودج : «احتفظوا بهذه الفتاة فوالله إنى ما رأيت أكثر غيرة منها على الإسلام ، ولقد خاطرت بحياتها وأتتنى تحت النبال المتساقطة تلتمس الكف عن القتال» ، فخجلت أسماء لهذا الإطراء وأطرقت ، فقال على : «بورك فيك يا بنية ، إنى توسمت فيك هذا الخير منذ رأيتك للمرة الأولى .. تعالى» ، .. وظلوا سائرين إلى البصرة حتى دخلوها ، فنزل على بقرب المسجد ، وتوارد الناس لمبايعته وقد سلم الأمر له .. ونزلت أسماء فى الدار مع بعض النسوة ممن جئن مع الإمام ، . وظلت أياما تحاول أن ترى محمدا بعد هذه الحرب، إذ شغله الإمام بالعناية بأخته أم المؤمنين، .. وقد أدركت أسماء ذلك ، فسارت نحوه بحجة زيارة عائشة، فلما التقيا أرادت أن تعرف سبب تخلفه عن

زيارتها مع علمه أنها جريحة فى الدير .. فدهش لقولها وأكد لها أنه لم يكن يعرف عنها شيئا لأن مسعودا لم يعد إليه وهو لا يعرف مقره حتى هذه اللحظة. ثم قال: «ها قد انقضت الحرب وانتصر الإمام والحمد لله .. وآن لنا الاستقرار والاجتماع» .. فغيرت الموضوع . ثم قالت : «ولكنى على أهبة السفر إلى الشام» ، قال : «لماذا» ، قالت : «كى أسأل عن والدى الحقيقى» ، قال : «وكيف ذلك .. ومن يخبرك عنه ؟» ، فقصت عليه خبر رئيس الدير مختصرا، فعجب وانذهل وأصبح أكثر اشتياقا لمعرفة والدها ، وارتفاع مقامها فى عينيه لما علم أنها ابنة أحد كبار الصحابة فى المدينة، وأرادت تغيير الحديث فقالت : «وكيف أم المؤمنين ؟» ، قال : «هى بخير .. وقد أمرنى الإمام بإعداد ما يلزم لسفرها إلى مكة» ، ولم يتم كلامه حتى رأى الناس فى هرج يصيحون : «جاء أمير المؤمنين» ، ثم وصل على وكانت عائشة قد تهيأت للسفر ، وجاء الناس لوداعها فخرجت لوداعهم . فقال على : «إنها زوجة نبيكم» ، وودعها ، ثم قال لمحمد : «سر مع أختك يا محمد إلى مكة» ، فلما سمعت أسماء هذا الأمر اضطرب قلبها ونظرت إلى محمد ونظر هو إليها .. ففهم كل منهما ما فى ذهن الآخر .

الخطبة

وكان الحسن قد جاء مع والده لوداع أم المؤمنين ، فرأى أسماء وقد علم بما أظهرته من الغيرة على الإسلام ، فازداد حبه لها وصمم على خطبتها.. ثم علم أن والده عازم على الذهاب إلى الكوفة لأخذ البيعة كما أخذها فى البصرة .

سار على إلى الكوفة وسارت هى فى جملة السائرين . وقضت فى الكوفة أياما ، صممت بعدها على الاستئذان فى السفر ، فسألت عن على فقيل لها إنه فى مجلسه وحده .. فاستأذنت فى الدخول عليه فأذن لها فدخلت .. فلما رآها رحب بها، ثم قال : «كنت عازما على استقدامك إلى لأشكرك على سعيك فى هذا الأمر» ، فأطرقت ولم تجب ، فقال لها : «ولنا فوق ذلك اقتراح نقترحه عليك عساه أن ينال وقعا حسنا فى نفسك» ، فقالت : «إذا أمرت أطعت» ، قال : «إننا نود استبقاءك عندنا فتكونين بمنزلة ابنتنا» ، «فأدركت أسماء ما وراء ذلك ، فأجفلت مخافة أن يتحقق ظنها لعلمها ما فى نفس الحسن .. ثم قال لها علي: «ولا أخفى عنك أن ولدى الحسن راغب فيك لما لمسه من غيرتك على الإسلام ورغبتك فى إعلاء كلمته . فهل ترضين به زوجاً؟» ، فلما تحققت من ظنها ، لم تستطع إخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار السريع ، ولكنها تجلدت وقالت وهى تظهر الامتنان : «أنا لا أستحق هذا الكرم يا مولاى لأنه فوق ما تتوقعه فتاة يتيمة مثلى .. ولكننى جئت إلى مولاى الإمام الآن فى أمر أهمنى كثيرا ، وهو يدعونى إلى سفر قريب لا أرى منه بدا ، فجئت لأستأذن من أمير المؤمنين بشأنه» ، قال : «وما ذلك ؟» ، قالت: «لا أظن مولاى أبا الحسن يجهل حال والدتى يوم قدومها المدينة ، وما ظننا أننا فقدناه من السر بوفاتها» ، ولعلك تعلم يا سيدى أن يزيدا الذى كان معنا فى ذلك اليوم المشئوم ليس والدى

الحقيقى ؟» ، قال : «ظننت ذلك فيه منذ رأيته ، ثم سمعت أنه ليس والدك» ، قالت : «ولكن أنا قد علمت بذلك من والدتى ، فقد أخبرتنى به وقالت لى إنها ستخبرنى عن والدى الحقيقى عند وصولنا المدينة ، فقضى الله بوفاتها قبل وصولنا فظننت أن خبر والدى قد دفن معها ، ولكن القدر ساقنى بالأمس إلى دير بجوار البصرة بعد جرح أصابنى فى أثناء سفرى، فأقمت فيه أياما أعالج الجرح .. فرأيت هناك راهبا عرفته وكنت قد رأيته فى كنيسة دمشق قبل سفرى ، فأخبرنى خبرا أعاد إلى الأمل فى الاطلاع على ذلك السر» ، فقال على : «وهل أخبرك عن والدك» ، قالت : « كلا يا مولاى ولكنه أخبرنى أن قس كنيسة دمشق يعرفه ، لأن والدتى اعترفت له به دون سواه» ثم قصت أسماء ما أخبرها به رئيس الدير بتفاصيله .

ولم تكد تتم كلامها حتى ظهر الاستغراب والدهشة على وجه الإمام لقوله إن والدها من كبار المسلمين فى المدينة ، وإن والدتها جاءت المدينة للبحث عنه ، فقال لها : «ألم يخبرك عن اسمه ؟» ، قالت : «يا ليته فعل .. ولكنه لا يعرف الاسم .. وهذا ما حملنى على الإسراع إلى دمشق» ، وحينذاك استأذن الحسن .. فسلم ونظر إلى والده فآنس فى وجهه تغيرا فهم أن يسأله ، فإذا هو قد أشار إلى أسماء وإليه بالجلوس وقال : «إن اسماء راضية فرحة ولكنها فى شغل جديد ، فهى ذاهبة إلى دمشق سريعا لتحقق نسبها من قس فى كنيسة مارى يوحنا هناك . إذ لا يخفى عليك أن يزيدا الأموى الذى يزعم أنه والدها ليس إلا زوج أمها ، وأما والدها الحقيقى فلا

يزال أمره مجهولاً» ، فشق ذلك على الحسن وقال : «إن البحث عن والدها واجب ، ولكنه لا يدعو إلى تأجيل الخطبة، فقال علي: «بلى إنه يدعو إلى ذلك ، لا سيما وقد فهمنا أن والدها الحقيقى أحد كبار الصحابة بالمدينة ، فما أدرانا إذا كان بيننا وبينه ما يحرم الزواج من قرابة عصب أو رحم أو رضاعة أو غيرها ، فالأفضل يا بنى أن نؤجل هذا الأمر إلى حين عودتها» .

أسماء فى دمشق

قضت أسماء أياما فى مسيرها من الكوفة إلى دمشق ، فإذا هى فى منبسط من الأرض ، تحف به الحدائق الغناء والبساتين وفيها أشجار المشمش واللوز والسفرجل والخوخ والليمون وسائر أنواع الفاكهة .. وكانت أسماء ملتفة بالعباءة والكوفية فوق جواد يسابق الريح ومعها الخادم على جواده ، فأقبلت على دمشق فى الصباح ، فدخلت المدينة بعد أن ترجلت وأمرت الخادم أن يسير فى أثرها بالجوادين .. فمشت بعباءتها وكوفيتها تلتمس كنيسة مارى يوحنا . وظلت سائرة حتى دنت من الكنيسة فتذكرت أن هذه الكنيسة المعروفة باسم القديس مارى يوحنا لما فتح المسلمون الشام اتخذوا نصفها الشرقى مسجدا، فالتمست الباب المؤدى إلى القسم الغربى وهى لا تزال بلباس السفر . فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصلاة، فكلمها باللسان الرومى وكانت قد تعلمته من والدتها فى حداثتها ، فسألها عن غرضها فقالت إنها تريد القس «مرقس» فدعاها للاستراحة على مقعد وسار للسؤال عن القس فلبثت فى انتظاره وهى تشغل نفسها بما تراه من فخامة البناء .

فـمـا لبث الخـادم أن عـاد وهو يقـول : «تفـضلى إلى غـرفـة الاستقبال فتقابلين الشماس وهو يجيبك على ما تريدين» ، فخرجت من الكنيسة إلى دار فى وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء . ثم دخلت قاعة فخمة ، فاستقبلها فيها شماس عرفته حين وقع نظرها عليه وتذكرت أنه رأته يوم زارت الكنيسة مع والدتها قبل سفرها إلى المدينة ، فاستأنست به وسألته عن القس مرقس فدعاها إلى الجلوس . فلما جلست قال لها : «إن القس مرقس مسافر منذ بضعة أشهر إلى بيت المقدس» ، قالت : «ومتى يعود؟» قال : «لا أدرى متى يعود لأن سفره لم يكن لشأن خاص بالدير ، ولكنه خرج فرارا مما أقلق راحته من أصوات البكاء والعويل .. التى ترن فى آذاننا كل يوم» ..قـالت : «ومـا هو هذا العـويل؟» ... قـال : «ربما سمعت بمقتل الخليفة عثمان ، فإن بعض رجال حاكمنا معاوية جاء بقميصه ملطخاً بالدم ، وأصابع امرأته التى قطعت وهى تدافع بيدها عنه ووضعوها على المنبر ، وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل عثمان فيصيح الناس رجالا ونساءا شيوخا وأطفالا يبكون ويولولون .. وكـان أبونا القس فى أثناء ذلك مـريضـا مـرض الشيخوخة ، فزاده ذلك الحال ضعفا . فأشار عليه طبيبه أن يسافر إلى القـدس ريثما تتغير الحال .. وقد بلغنا أنه لا يزال مريضا» ، فقالت: «ألا تدرى متى يعود؟» ، قال : «كلا «فإذا شئت أن تقيمى ضيفة فى هذه الدار ريثما يعود أبونا القس أقمت على الرحب والسعة ، فإن عندنا نساء يقمن بخدمتك» ، قال ذلك وصفق فجاء الخادم فأمره أن يدل أسماء على غرفة رئيسة الراهبات

فصعد بها إلى قاعة علوية ، فيها امرأة طاعنة فى السن بلباس أسود وعليها هيئة الوقار .. فنهضت لها واستقبلتها . وجلست أسماء وقد أنست لتلك المرأة ، .. وخيل لها أن القس مرقس سيموت فى القدس لضعفه وشيخوخته ، فيضيع السر ، فخطر لها أن تذهب هى إليه وتستطلع السر قبل دنو أجله .

القميص والأصابع

ودنا وقت الظهر ، فخرجت الراهبة للصلاة كالعادة ، وظلت أسماء منفردة، فأطلت من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله . وفيه القسم الذى جعله المسلمون مسجدا ، فرأت فوق أرضه الأبسطة والطنافس وقد تعلقت بسقفه المصابيح، وفيما هى تتأمل فى جدران المسجد ومفروشاته ، سمعت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الظهر ، وما كاد يفرغ من أذانه حتى رأت الناس يقدمون إلى صحن المسجد ثم رأت الناس قد فتحوا طريق واسعا .. فأدركت أن أحد الكبراء داخل ، وإذا برجل جميل الخلقة أبيض البشرة ذى هيبة ووقار ، كبير العمامة عرفت – توا – أنه معاوية بن أبى سفيان، ورأت إلى جانبه رجلا قصير عيناه تكادان تنفذان حدة . فمشيا وهما ينظران إلى الجميع والناس سكوت إجلالا لهما ، فلم تعرف أسماء رفيق معاوية ، ولكنها سمعت واحدا من الحضور يقول بصوت عال : «أنت أهل لها يا ابن العاص .. إنما أنت نصير الخليفة المظلوم» ، فعلمت أنه عمرو بن العاص .

فوقفت تنظر ما يبدو منهما ، فرأت معاوية ظل ماشيا إلى دكة عليها قميص أبيض ملطخ بالدم ، وعلمت أن الدكة هى المنبر وأن

القميص قميص عثمان، ورأته يصلى ركعتين وصعد المنبر .. فسكت الناس وأصغوا ، فوقف ثم تناول القميص عن المنبر وجعل يقلب جزءاً منه وينظر إلى الناس ويقول : «أتعلمون ما بين يدى ؟ إنها أصابع نائلة زوجة الخليفة المظلوم .. قطعت بسيوف القتلة وهى تدافع عنه» ، ثم أمسك معاوية القميص بيده وقال : «أتعلمون قميص من هذا ؟ إنه قميص الخليفة المظلوم .. إنه قميص عثمان المقتول ظلما» ، ولم يكد يتم كلامه حتى ضج الناس من جوانب المسجد بصوت واحد : «قتل عثمان مظلوما .. قتل مظلوما» ، فضج النساء والأطفال بالبكاء، وأسماء تمتلىء غيظا لما سمعته من التعريض بعلى ومحمد .. فثارت الحمية فى رأسها ، ولكنها صبرت نفسها لعلمها أن موقفها خطر . فسمعت معاوية يعود إلى كلامه بين تحريض وتعريض حتى سمعته يقول : «إن عليا قتل عثمان وآوى قتلته» ، فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صبرا فتحولت من النافذة بأسرع من لمح البصر وهرولت إلى باب الجامع بعباءتها وكوفيتها .

وبينما الناس يسمعون خطاب معاوية إذا بفتاة وقفت بينهم وعيناها تتقدان غيظا ، فاسترعت انتباههم وشغلوا بالنظر إليها عن سماع الخطاب . أما هى ، فصعدت إلى دكة من رخام وولت وجهها إلى الناس وظهرها إلى معاوية ، وقالت وصوتها يرتعش «أيها الناس أراكم تسمعون وتغضبون لأمر لم تشاهدوه ، لأنكم لم تكونوا فى المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة .. يقولون لكم قتل مظلوما وأن عليا أمير المؤمنين قتله ، وهو افتراء ، لأن عليا

أول من دافع عنه بلسانه وسيفه وأولاده. قتل عثمان أيها الناس والحسن والحسين فى داره ، وقد تلطخ وجه الحسن بالدم .. وقد شهدت ذلك بنفسى ورأيته رأى العين . فاتهام على بمقتله افتراء وفتنة . تزعمون أنه قتل مظلوما وربما كان زعمكم صحيحا ، ولكن عليا لم يرد قتله بل هو أول من قال باستبقائه خوفا من الفتنة .. فكيف تقولون إنه قتله ؟!» ، وما أتمت أسماء كلامها حتى صاح معاوية : «من ذا الذى يتكلم ؟ من أنت يا رجل ؟» ، فالتفت إليه أسماء وقالت : «إننى فتاة يا معاوية ولست رجلا !» فعجب لهذه الجرأة من فتاة فى مثل سنها ، وتأثر من هيبتها وجمالها ومع كل غيظه لم يأمر بالقبض عليها . ولكنه دعاها إليه .. فأشار إليه عمرو إشارة فهم منها أنه لا يليق أن يجادلها أمام الناس .

فأشار معاوية أن يسيروا بها إلى السجن حتى ينظر فى أمرها .

حلم لذيذ مزعج

وجدت أسماء نفسها فى حجرة لايدخل إليها النور ، إلا من كوة فى أعلى الجدار .. وليس فى الحجرة إلا حصير بال .

فلما خلت بنفسها فى تلك الحجرة المظلمة تذكرت ما مر بها من الأهوال منذ حداثتها وما قاسته من البلاء.

فالتفتت إلى ما حولها فلم تجد أحداً ، فأطلقت لنفسها عنان البكاء.. ومازالت فى ذلك حتى تعبت فغلب عليها النعاس .

ثم أفاقت من نومها مذعورة فرأت نفسها فى تلك الحجرة المظلمة على ذلك الحصير القذر ، وسمعت صوتا يشبه صوت

مروان بن الحكم عدوها القديم . فقالت فى نفسها: «أعوذ بالله من نكد حظى على يد هذا الرجل . ألا تزال ذكراه شؤما على حتى فى أحلامى ؟» وكانت تفكر فى ذلك وهى تمسح عينيها بأناملها لتتحقق إذا كانت يقظة أم فى منام .. فما كادت تفتح عينيها حتى رأت مروان واقفا أمامها..

فتقدم مروان نحوها وهو يقول : «لقد صفحنا عما مضى يا أسماء إذا كنت تعودين إلى صوابك وتعلمين أن محمدا لا نفع فيه ، واعلمى أنك إن أطعتنى هذه المرة صفحت عما مضى . واعلمى أن معاوية سيبعث إليك يستطلع أقوالك بشأن ماحدث فى المسجد، فإذا شئت البقاء حية اعتذرى عما مضى وكونى مع القوة» ، فأيقنت أسماء أن حياتها بين يديه ويدى معاوية فصمتت، فظن سكوتها لينا أو رضاء ، فدنا منهاوبالغ فى نصحها، وإذا بالسجان قد دخل وقال لمروان: «إن الأمير بعث رجالا يستقدمون السجينة إليه» ،وتقدم السجان إلى مخاطبة أسماء بوقار فقال لها : «تفضلى يامولاتى إلى الأمير» .

معاوية

وسارت أسماء بخطى ثابتة وقلب لايهاب الموت ، ومروان يمشى وراءها وقلبه مبتهج بما تجدد عنده من أمل الظفر بها ،وبعد بضع دقائق وصل الجميع إلى قصر منيع من بناء الرومان ، وكان فى الأصل قصرا لحاكم الشام من الروم .. وعند بابه وقف الحراس بالسيوف والحراب . فدخلت داراً واسعة وسارت حتى وصلت إلى قاعة المجلس، وفى صدرها كان يجلس معاوية على مقعد وإلى جانبه

عمرو بن العاص ، فدخلت ونظرت إلى الحضور بسكينة وجلال.. فأعجب معاوية بهيبتها وجمالها وكان قد أعجب بشجاعتها وإقدامها .

قال لها : «ما الذى حملك على الجرأة التى ظهرت منك فى المسجد اليوم؟» ، قالت : «إنما حملنى على ذلك الحق والصدق فقد سمعت تعريضا برجل اتهموه تهما هو برئ منها» ، قال معاوية : «وما أدراك ببراءته ؟» ، قالت : «إنى أعلم من الأمر فوق ما يعلم كل واحد منكم وقد تحققت يقينا أن عليا أمير المؤمنين برئ من هذه التهمة» ، فاعترضها عمرو بن العاص قائلاً : «لا تقولى أمير المؤمنين فإننا لم نبايعه» ، فقالت : «وإذا لم تبايعوه أنتم فقد بايعه سواد المسلمين فى المدينة والبصرة وسائر الحجاز وهو ابن عم الرسول صلي الله عليه وسلم وأحق الناس بهذا الأمر» ، فقال عمرو : «أراك تحكمين وتفصلين فى أمور يظهر أنك تجهلينها . يكفيه أنه سبب قتل الخليفة عثمان » ، فنظرت أسماء إلى عمرو وقالت : «ألست عمرو بن العاص ؟» قال: «نعم» ، قالت : «ألم تكن أول الناقمين على ذلك الخليفة المقتول لأنه عزلك عن مصر وولاها أخاه عبد الله .. ألم تسر لقتله ؟» ، فعظم جوابها على عمرو وخشى أن تتمادى فى الجرأة ، وقال لها : «ممن أنت يا فتاة ؟» ، قالت : «من هذا المكان» قال : «إنى أسألك عن أبيك» ، فسكتت ولم تجب ..

فتقدم مروان وهو يرجو أن يخفف غضب معاوية وعمرو عن أسماء طمعا فى رضاها، وقال : «إنها أموية بنت يزيد الأموى وقد

قتل أبوها – رحمه الله – فى جملة من قتل يوم مقتل عثمان» ، فقال معاوية : «أأموية أنت؟» ، فلم تجب فقال : «كيف تكونين أموية وتقولين غير قول بنى أمية وهم مجمعون على أن عثمان قتل ظلما ، وقد نهضوا جميعا للأخذ بثأره ؟» ، فقالت : «لا يهمنى أموية كنت أو غير أموية ، ولكننى أشهد بما أعلم . وخشى عمرو أن تتمادى فى كشف ما كان يحمله لعثمان قبل قتله .. فقال لها : «أراك يا بنية مغرورة .. ومن العبث أن نجادلك ، وخصوصا أن النبى صلي الله عليه وسلم أوصانا بالنساء رفقا لأنهن ضعيفات» .

فتقدم مروان إلى معاوية وهمس فى أذنه قائلاً : «أرى الكف عن جدالها ، فاتركوا أمر إقناعها لى لأنى أعرفها قبل ذهابها إلى المدينة .. فقد كانت مقيمة فى دمشق وأعرف والدها» .

ظلمة السجن

وأشار معاوية إلى الحراس ، فساروا إلى السجن وأسماء تمشى معهم . أما مروان فإنه أسر إلى كبير الحراس أن يجعلها فى غرفة من غرف السجن منفردة ، وأن يضيقوا عليها لعلها تشعر بحاجة إلى الاستنجاد به.. ولم يدركوا السجن إلا بعد الغروب ، فدخلوا بها إلى حجرة أخرى منخفضة السقف مظلمة تتصاعد منها رائحة الرطوبة والعفونة، وقد نبتت الطحالب على جدرانها ، فأقعدوها على حصير بال ، فلما رأت نفسها فى تلك الغرفة وقد خلا المكان من الناس، لبثت تفكر فى حالها وما صدر منها فى حضرة معاوية من الأقوال ، فرأت أنها أدت الأمانة حقها .. قضت بعد ذلك ساعات وهى جالسة، ثم انتبهت لنفسها وما هى فيه من الخطر..

إذا لم يكن من معاوية ورجاله فمن مروان .. وأيقنت أنه آت إليها تلك الليلة يحاول استرضاءها ..

وبينما هى ساكنة تفكر فى حالها ، سمعت خطوات بطيئة .. فجمد الدم فى عروقها ، وخشيت أن يكون القادم هو مروان آتيا نحوها .. وعزمت على أن تبذل غاية الجهد فى سبيل الدفاع إذا كان القادم مروان ، وفى أثناء ذلك ، لمحت نورا ضعيفا يتعاظم ويقترب .. ثم اكتشفت أن حامله رجل عرفت من لباسه ومظهره أنه السجان، فإذا هو يحمل المصباح فى إحدى يديه ويحمل بالأخرى طعاما ، فإذا هو يقول : «سامحينى يا سيدتى لأنى تركتك إلى الآن بغير طعام أو نور ، فإنى لم أكن أعرف أنك تنتمين إلى الأمير مروان» ، فنفرت منه وقالت : «لا حاجة بى إلى طعام، فارجع من حيث أتيت» ، فعجب السجان لقولها وقد كان يتوقع منها ارتياحا لاهتمام مروان بأمرها .

طارق مفاجىء

وعاد المكان إلى السكون مدة طويلة ، وقد غرقت أسماء فى هواجسها ونسيت نفسها .. ولكنها ما لبثت أن انتبهت لصوت أقدام تمشى فى الغرفة الخارجية بهدوء ، فتأكدت أن مروان قادم فخفق قلبها . وصعد الدم إلى رأسها وتهيأت للفتك به . ثم رأت شبحا قادما يخطو خطوة السارق المتلصص وقد التف بعباءة .. فإذا هو يقول بصوت ضعيف : «لا تخافى يا سيدتى .. إنى جئتك بالفرح .. لا تخافى !» ، فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها ، وشعرت أنها تسمع

صوتا تعرفه فقالت : «من أنت ؟» ، قال : «إنى عبدك مسعود لا تخافى . وقد جئت لإنقاذك فقد كنت سجينا فى هذا المكان منذ تركتك فى دير البصرة .. لأنى خرجت من الدير ، وفيما أنا عائد إلى الكوفة لقينى جماعة من بنى أمية ، كانوا قادمين فى مهمة لمعاوية .. فقبضوا على وساقونى إلى هذا السجن لأنى من أتباع ابن أبى بكر» . فقالت : «وكيف عرفت أنى هنا ؟ » ، قال : «رأيتك مع الحراس لما أتوا بك عند الغروب .. وقد جئت حتى كدت أقترب منك فسمعت خطوات السجان فهرولت راجعا ، وأما الآن فلا خوف علينا من السجان .. لأنى حرضته على المسير إلى مروان ليخبره برفضك طعامه ويحرضه على الجوع للانتقام منك وعزمت على الخروج أثناء غيابه» ، قالت :« والباب ؟» ، «قال : «يظن السجان المسكين أنه أغلقه ، ولكنه لا يزال مفتوحاً .. تعالى قبل أن يعود السجان أو يأتى مروان . تعالى .. » .

ومشى ، فمشت هى فى أثره ، ثم عاد إلى المصباح وقال : «أرى أن نطفئ هذا المصباح لئلا يدل علينا » . وأطفأه فأظلم المكان، ولم تعد أسماء تعرف الطريق فأمسك بيدها ، ومشيا وهى ترتعد حتى خرجا من الغرفة الثانية إلى الدار الصغرى وأطلا على الدهليز ، وما أن صعدا الدرجات حتى سمعا كلاما فى طرف الدهليز الآخر . فوقفا يتسمعان فإذا بمروان والسجان يتحدثان ومروان يقول : «لابد لى من قتلها إذا ظلت على عنادها» ، فجمد الدم فى عروق مسعود وأسماء وأيقنا بالهلاك .

وشق ذلك على مسعود لأنه عرض أسماء للخطر أما هى

فقاومت اضطرابها وضغطت على يد مسعود وجرته إلى خلوة وراء باب الدهليز انزويا فيها وقلباهما يخفقان .. ولبثا ينتظران – وكان الظلام حالكا – دخل مروان والسجان فسمعا مروان يقول : «هات المصباح وتعال» ، فأجابه السجان : «فى غرفتها مصباح تركته عندها» ، قال ذلك ودخلا فى الدهليز وصدى خطواتهما يرتفع رويدا رويدا حتى بلغا الباب الثانى الذى أختبأ مسعود وأسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلما وقف وقال للسجان : «أين هو المصباح إنى أرى السجن مظلما ؟» ، فقال السجان : «إنى وضعته فى حجرتها .. ولعلها أطفأته .. هلم بنا لنرى» ، فقال مروان : «إنى لا أرى الطريق لشدة الظلام .. هات مصباحا آخر» ، قال : «هلم ندخل ثم آتيك بالمصباح .. انزل هذه الدرجات على مهل .. ها أنا أخطوها أمامك» ، قال ذلك ونزل ، ومروان يتوكأ بإحدى يديه على السجان وبالأخرى على الباب حتى بلغا أرض الدار الصغرى .. فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يلتمسان الأرض .. فلما دخل مروان والسجان الغرفة ، وتحول مسعود وأسماء من وراء الباب إلى الدهليز بخفة وسرعة ، ومنه إلى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان لا يزال مفتوحا ، وأسرعا إلى الشارع وما صدقا أنهما أفلتا.. وكانت أسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة .. فلما بعدا عن السجن وقفا برهة يتدبران المكان الذى وصلا إليه فعرفته أسماء فسارت تلتمس كنيسة مارى يوحنا.

النجاة

وقبل أن تصل إلى الكنيسة تذكرت خادمها والجوادين فى الخان ، فوقفت تتردد بين أن تسير إلى الكنيسة أولا أو إلى الخان ، فسألها مسعود عن سبب ترددها . فقالت : «أتردد بين أن أذهب إلى كنيسة مارى يوحنا فأقيم فيها أو أسير إلى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب » .

فقال مسعود : «مالنا وللكنائس . هلم بنا إلى الخان ومنه إلى الكوفة فقد بلغنى أن الإمام عليا وسائر الصحابة ساروا إلى هناك » فتنهدت وقالت : «نعم إنهم هناك جميعا .. ولكن لى فى هذه الكنيسة غرضا يهمنى» ، فأرى أن أقضى بقية هذا الليل فى الخان لأرى الخادم وأتدبر أموره ثم أسير إلى الكنيسة » ، قالت ذلك ومشت ومسعود إلى جانبها فسألته : «هل أنت عازم على الذهاب إلى الكوفة ؟ » .

قال : «نعم إن شاء الله» . ولما وصلا إلى الخان بدلت ثيابها ، ثم ودعها مسعود وذهب ، وتناولت هى بعض الطعام ونامت .. وفى الصباح التالى لبست ثوبا وخرجت تلتمس الكنيسة ، فدخلت الكنيسة وسارت إلى رئيسة الراهبات .. فلقيت منها ترحيبا عظيما ، وكانت قد علمت بالقبض عليها .

وقضت أسماء أياما فى مخبئها عند الراهبة تنتظر قدوم القس ، فأبطأ وملت الانتظار وخافت أن يموت قبل رجوعه من أثر الشيخوخة والضعف . ولما تصورت موته قبل إطلاعها على اسم والدها ، اضطرب جسمها ، واقشعر بدنها وخافت إن هى سارت إليه أن يأتى هو من طريق آخر فلا يلتقيان ..

خلافة الإمام على

لما انتصر الإمام علي فى موقعة الجمل نزل البصرة فبايعه أهلها ، سار إلى الكوفة فنزلها وانتظم الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وخراسان وفارس وبايعه أهلها . ولم يبق خارجا إلا الشام وفيها معاوية وأهل الشام يؤيدونه ويطالبون بدم عثمان . وكان على قد ولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو من حزب الإمام على ومن خيرة المهاجرين ومن دهاة العرب ، وكان معاوية قد كتب إلى قيس يستميله ويبذل له الوعود العظام ، فلم يجبه إلا دفاعا عن على . فاصطنع معاوية عن لسان قيس كتابا قرأه على الناس فى الشام يوهمهم أن قيسا معه .. فبلغ ذلك عليا فصدق الوشاية فى قيس وعزله عن مصر وولى محمد بن أبى بكر ولم يكن لعلى شاغل يهمه بعد موقعة الجمل إلا معاوية وجنود الشام ، فرأى أن يبعث إليه يطالب ببيعته ، فماطله معاوية مدة حتى يرى حال أهل الشام وما يقاسونه من البكاء والعويل عند قميص عثمان وأصابع نائلة ، فقرر على أن لابد له من الحرب ، فسار من الكوفة فى جيش يلتمس الشام وقد علم بما تحالف عليه معاوية وعمرو ، وسار معاوية وعمرو من الشام يطلبان عليا ولكنهما أبطآ فى السير حتى التقى الجيشان فى «صفين» وكان ذلك فى سنة ٣٧ هـ ، بقرب شاطئ الفرات .

هناك نزل الجيشان العظيمان يقودهما أعظم رجال الإسلام ونخبة من المهاجرين والأنصار . وفى ذلك السهل الواسع جرت موقعة صفين المشهورة التى قتل فيها عشرات الألوف من

الرجال . وقد نال فيها على النصر والغلبة . ولكن هل انتظم له الأمر بعدها ؟ كلا .. فإنها كانت خاتمة انتصاراته على منافسه فى الخلافة ولم يكن ذلك لضعف عزيمته، ولكنها حيلة دبرها عمرو ابن العاص مما أدى إلى فشل رجاله فانقسموا فيما بينهم.

أسماء تستعد للسفر

ولبثت أسماء أياما وأسابيع عند الراهبة تنتظر عودة القس من بيت المقدس فلم يرجع فاضطرب بالها ، وقررت أن تسير هى إليه بنفسها .. فاستشارت الراهبة فى الأمر فعجبت لقلقها. وقالت لها : «قولى يا ابنتى ما الذى أحزنك ، عساى أن أنفعك؟ » .. قالت أسماء: «إنى أحتاج إلى سيدى القس فى سر عنده عن والدتى لا يعرفه أحد سواه ، وقد كانت والدتى وحدها تعرفه وباحت به للقس» .. فأدركت الراهبة أن والدتها ماتت فقالت : «وهل يجوز أن أعرف سرك ؟».

قصت أسماء قصتها من أولها إلى آخرها مما يتعلق بحقيقة والدها . وكانت تتكلم والراهبة تنظر إليها وتتأمل ملامحها ، فلما فرغت من كلامها وضمتها وقالت : «لعلك ابنة مريم ؟» ، «قالت : «نعم يا سيدتى » ، فقالت: «مسكينة والدتك» ، فقالت أسماء : «وهل تعرفينها ؟ » ، قالت : «أعرفها قبل أن تتزوج ، وكانت كثيرا ما تأتى الكنيسة للصلاة .. وكنت أنا يومئذ شابة وهى صبية ، وكنت أحبها كثيرا فلا يمضى عيد من أعيادنا الكبرى إلا كنت أنا والقس على مائدة جديك رحمهما الله .وظللنا على ذلك حتى

جاء العرب منذ بضع وعشرين سنة ، ففتحوا هذه المدينة ، وكانت والدتك قد أصبحت شابة ، فبلغنى أنهم أخذوها فى الأسر ، ولم أعد أراها إلا منذ عام إذ أتت إلى القس .. وأذكر أنى رأيتها وهى داخله ، ولما خرجت سألت القس عنها وقلت: أليست هذه مريم بنت قسطنطين (وهو اسم جدك) ؟، قال : نعم .. ولكنى رأيت على وجهه بعد خروج والدتك من عنده أثر الانقباض ، ولم أسأله عن السبب مخافة أن يكون سؤالى من قبيل التطفل لعلمى أن القس مستودع أسرار كثيرين »،.. فقالت أسماء بلهفة : «ألم تعرفى اسم والدى ؟» ، قالت : « كلا ، لأنى لم أسأله عن ذلك» ، فقالت لها : «بماذا تشيرين على الآن .. أأنتظر رجوع القس أم أسير إلى القدس فاستطلعه السر ؟» ، فصمتت الراهبة كأنها تفكر فى أمر . وقالت : «أرى أن تذهبى إلى بيت المقدس لأن القس أصبح شيخا هرما» ، فأدركت أسماء أنها تخشى انقضاء أجله عاجلا ، فسارت قاصدة بيت المقدس.

القس مرقس وانطاكية

وكان القس مرقس كما تقدم يعرف جدى «أسماء» وأهلها قبل الفتح فلما عرف السر من مريم والدة أسماء شاركها عواطفها، فلما جاءته المرة الأخيرة قبل سفرها إلى المدينة أخبرته أنها عازمة على كشف أمرها لأصحاب الشأن ، ولكنه رآها مريضة هزيلة وتوقع قرب انقضاء أجلها ، وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) أراد أن يرى أسماء ليخبرها عن والدها ، ولكنه لم يكن يعرف مقرها .. فلبث زمنا حتى جاء الأمويون بقميص عثمان وأصابع نائلة، وكان

ما كان من بكائهم وعويلهم. أثرت تلك الضوضاء فى صحته . فاضطر مع ضعفه وعجزه أن يبرح دمشق إلى بيت المقدس، ولما كان يزداد ضعفا ، وأحس بقرب الأجل .. فخطر له الركوب إلى أنطاكية، واتفق أن مركبا إمبراطوريا كان راسياً فى مياه عسقلان أرسله الإمبراطور قونسطانس الثانى ، ليحمل البطريرك الأورشليمى إلى أنطاكية وقد علم بعزم القس على السفر إلى أنطاكية فدعاه ليسير إليها معه بحرا واتفق ذلك مع وصول أسماء إلى القدس، فلما عرفت بسفره إلي أنطاكية تولاها اليأس ، على أنها أصبحت فى اليوم التالى وقد هدأ روعها ، فقالت فى نفسها : «لأذهبن إلى أنطاكية على عجل» ، وانطلقت لاتلوي علي شيء. وبعد مسيرة أيام وليال أشرفت على أنطاكية .

ظلت أسماء سائرة تلتمس دار البطريرك لعلها ترى القس هناك، فبلغت بناء شاهقا يدخلون إليه من باب عظيم قائم على أعمدة من الرخام ، ورأت فى الدار جماعة من القساوسة والشماسة. فسألت عن البطريرك فقالوا إنه لم يصل ولا هم يعلمون زمن وصوله، فقالت أسماء في نفسها : «لابد لى إذن من الانتظار» ، وأمرت الخادم أن يسير بها إلى خان تقيم فيه.

المسير إلى صفين

قضت أسماء فى الخان أياما وهى على مثل الجمر .. وكانت غرفتها تشرف على الشارع الرئيسى ، فاستيقظت ذات يوم من فراشها على ضجيج الناس فى الشارع فأطلت من النافذة فرأت جماعات من العرب فى عدتهم وسلاحهم سائرين على غير نظام ،

فبعضهم يحملون الأعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدفوف ، يضربن عليها وينشدن الأشعار الحماسية ليثرن نخوة الرجال . فعلمت أسماء أنهم من جند أنطاكية، ولكنها لم تفهم موكبهم ، فنادت الخادم وكان قد انخرط فى سلك المارة يستفهم عما هم فيه . وبعد قليل عاد مسرعا وأمارات البغتة بادية على وجهه . فقالت : «ما وراءك ؟ .. من هم هؤلاء» ، قال : «هم جماعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام فى صفين على جند أمير المؤمنين على بن أبى طالب » .. فقالت بلهفة : « وهل هم فى حرب هناك ؟ » ، قال : «نعم يا سيدتى ويقول أحد الذين خاطبتهم أنه شهد معركة هائلة هناك انكسر فيها جيش الإمام» ، وصعد الدم إلى وجنتيها وقالت : «أين هى صفين ؟ » ، قال: «إنها تبعد من هذا المكان شرقاً» .

فظلت صامتة برهة وقالت : «ولابد لى من الإسراع إلى هناك عسى أن أستطيع خدمة على ..أسرج الجواد وأعد معدات السفر» .

ولم تمض ساعة حتى ركبت أسماء وركب خادمها فى أثرها وخرجا من المدينة، ففكرت أسماء بماذا تستطيع خدمة الإمام ، فلاح لها أن تخدمه فى استطلاع حال العدو وكشف عوراته إذا اختلطت بجند الشام . وقطعت الطريق وهى تفكر فى الأمر ، فأطلت فى صباح الخميس بعد بضعة أيام على سهل صفين من جبل عال ، فهالها ما شهدته فى ذلك السهل من الخيام والأعلام والجند والخيل . فرأت هناك معسكرين أحدهما فى الشرق والآخر

فى الغـــرب بينهما ساحة خالية ، فعلمت أنهما معسكر على ومعاوية فى هـــدنة ، وشاهدت الجمال سارحة فى المرعى وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها ، وتأملت معسكر الشام فرأت فى وسطه حشداً كبيراً من الرجال والخيول ، فعلمت أن ذلك الجمع تابع لمعاوية أمير تلك الحملة . رأت فيه حركة ، وقد تهيأوا جميعا للقتال ، والتحم الجيشان وتطايرت النبال وصهلت الخيـــول وصاح الفرسان من الجانبين .. فلم تر بدا من العمل فقالت لخادمها : «أعطنى ثيابك وخذ ثيابى .. وابق هنا بالجوادين » .

موقعة صفين

بدت أسماء فى شبه رجال انطاكية وتظاهرت بالقتال معهم، وسارت مع المشاة حتى لا يفطن لها أحد .. حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتدمة ، حتى وصلت إلى مركز معاوية فرأت حولها خمسة صفوف من الرجال قد ارتدوا العمائم واتخذوا موقعا للدفاع عن معاوية ، فعلمت أنهم مستميتون فى سبيل نصرته .

وتطلعت من خلال الصفوف ، فرأت معاوية وإلى جانبه عمرو بن العاص ، وكلاهما يحثان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات والنبال تتطاير كأنها الجراد فى السحاب .. فاحتالت أسماء فى الدخول إلى معاوية ، فرأت فارسا جاء مسرعا ودخل من بين تلك الصفوف ، فدخلت فى أثره ودخل غيرها أيضاً .. فلم ينتبه لها أحد . فسمعت معاوية يسأل الفارس عما به فقال : «إن وطأة العدو شديدة ، ولكننا سنغلبهم بإذن الله » ، ونظرت أسماء إلى وجه عمرو بن العاص فإذا هو ممتقع وقد ظهر الخوف عليه وكذلك

معاوية . ثم رأت عمرا وقد خرج مسرعا ، فركب وسار يخترق الصفوف يحث الرجال ويحرضهم . وبعد وهلة عاد عمرو ودخل واختلى بمعاوية ، فلم تسمع اسماء ما دار بينهما .. ثم عادا إلى موقعهما ، وأسماء تترقب حركاتهما .. وانقضى النهار والحرب قائمة وقد خيم الظلام والناس لا يزالون يتقاتلون ، فاغتنمت أسماء ظلام الليل لاستطلاع حال معاوية ، فدنت من منطقته حتى أصبحت ليس بينها وبينه إلا الجدار .. فسمعته يخاطب عمرا ، وفى حديثهما ما يشف عن خوفها من عاقبة تلك المعركة .. ومما سمعته من قول معاوية : «أرى أهل العراق قد ثبتوا أمام أهل الشام» فأجابه عمرو : «إنهم ثبتوا .. نعم .. ولكن لابد من الحيلة ، وإلا فشلنا وانقضى الأمر علينا » ، فقال معاوية : «ومـــا الحيلة يا أبا عبد الله ؟ » . قال : «ننتظر على ما نحن فيه إلى الصباح ، فإذا تحققنا من فشل جندنا عمدنا إلى الحيلة » ، قال معاوية : «وما هذه الحيلة ؟ » ، قال : «سأقولها غدا صباحا .. وأرجو ألا نكون فى حاجة إليها» فودت أسماء لو أنه ذكر حيلته لتسرع بإبلاغها إلى على ، ولكنه لم يقل شيئاً .

رفع المصاحف

وأصبحوا يوم الجمعة والحرب لا تزال متواصلة ، وقد تقهقر جند معاوية . فالتفت معاوية إلى عمرو ، وقال : «ما الحيلة يا عمرو؟ » ، قال : «ارفعوا المصاحف على الرماح وقولوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، فإن قبلوا ذلك جميعا ارتفع القتال عنا . وإذا قبل

بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا وانقسموا على أنفسهم ، فيكون لنا بانقسامهم راحة» .

فلما سمعت أسماء ذلك هرولت مسرعة تخترق الصفوف وقلبها يرقص فرحا لأنها استطاعت أن تقوم بخدمة تنفع بها عليا وهى على يقين من فشل جند معاوية وأن عليا إذا ظل على القتال فاز بالنصر المبين وإذا صدق حيلة عمرو أفلتت منه الفـــرصة.

أما على ، فكان قد حارب ببسالة عظمى طول نهار الأمس ، وقد تحقق من فوز جنده .. فجاءه شخص يقول له إن أهل الشام رفعوا المصاحف على الرماح وهم يقولون : هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم .. فلما سمع على كلامهم قال : «لا .. لا نجيبهم إلى ذلك لأنها حيلة منهم » ، فقال نفر منهم: «يجب علينا أن نستجيب إلى كتاب الله» . وفيما هم فى هذا الجدل انشق الجمع وخرج من وسطهم شخص بثيـاب الرجال ولكنه أسماء وقد هرولت حتى وقفت بينهم وبين على وقالت لهم : «اعلموا أنى قادمة من معسكر معاوية ، وقد سمعت حديثهم عن الحيلة بأذنى، إنها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقى الشقاق بينكم وأخشى أن تنفذ حيلته فيكم» ..«فضحكوا من كلامها وقالوا : « كيف ندعى إلى كتاب الله ولا نجيب ؟» ، فقال علي : «أظنكم تدعوننى للكف عن القتـال بعد رفع المصاحف» .. إنى أحس بالفتنة» .. قالوا : «لا ..» ، وطال الأخذ والرد بينهم والتفتت أسماء إلى على فإذا هو مطرق وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما كأنه يرى عاقبة ذلك بعينه .

عقد التحكيم

وتقدم رجل من خاصة على فقال : «نرى الناس قد قبلوا حكم القرآن ، فهل تأذن أن نسمع ما يدعونا إليه معاوية من هذا الأمر ؟» ، فذهب ثم عاد وهو يقول : «سألت معاوية عما حمله على رفع المصاحف فقال : الرجوع إلى ما أمر به الله فى كتابه ، فابعثوا رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به ثم نتبع ما اتفقا عليه» .

فقال على : «قد قبلنا .. فأى رجل اختاروا هم ؟ » ، قال : «اختاروا أن ينوب عنهم عمرو بن العاص » ، فالتفت إلى من حوله وقال : «ومن تختارون أنتم ؟ » ، قالوا : «نختار أبا موسى الأشعرى» قال : «افعلوا ما أردتم» وبعد قليل جاء أبو موسى الأشعرى وعمرو فدخلا على على ليكتبا القضية بحضوره . ولما تمت الكتابة تلى العقد على الناس ، وحددوا يوماً للتحكيم وانفض المجلس . وجاءت أسماء إلي علي فى ساعة كان مختليا فيها . وقبلت يده فسألها عن حالها وما تم لها بعد سفرها ، فقصت عليه خبرها وما الذى حملها على القدوم لمقابلة القس ، فأثنى على غيرتها ودعاها إلى الذهاب معهم إلى الكوفة . فقالت : «يا حبذا ذلك ، ولكننى أقرب الآن إلى أنطاكية .. فائذن لى بالذهاب إليها فقد آن لى أن أعرف حقيقة نسبى» ، فأطرق على برهة يتأمل فودعته أسماء وركبت إلى أنطاكية لا تتوقف ليلا ولا نهارا علي أن تعود يوم التحكيم بين عمرو بن العاصي وأبي موسي الأشعري.

وأشرفت على أنطاكية من جبلها الشرقي وأطلت على البحر

فلمحت شيئا كأنه مركب فخفق قلبها سرورا .. فنزلت من الجبل حتى إذا دنت من المدينة سمعت دق الأجراس دقا بطيئاً متقطعا فقالت فى نفسها : «لعلهم يحتفلون بقدوم البطريرك » ، ولكنها لم تكد تدخل الشارع الرئيسى حتى رأت الناس يحتشدون فعلمت أنه احتفال بجنازة . علمت أنها جنازة القس مرقس وقد مات بعد وصوله إلى أنطاكية بيومين . لطمت وجهها وندبت سوء حظها.

★★★

ولما دنا الوقت المحدد للتحكيم تنكرت وسارت تلتمس «أذرح» حيث يقام التحكيم والخادم معها . ولما حان الوقت المحدد لتلاوة حكم الحكمين بعث على أبا موسى الأشعرى وأربعمائة رجل وبعث معاوية عمرو بن العاص وأربعمائة من أهل الشام والتقوا بأذرح . وكان عمرو بن العاص قد استخدم كل دهائه فى إقناع أبى موسى أن يوافقه على خلع على وتولية معاوية لأنه المطالب بدم عثمان فلم يفلح . وبعد جدال عنيف اتفقا على خلع على ومعاوية وأن يختار المسلمون واحدا غيرهما بالشورى . فلما جاء اليوم المعين واجتمع الناس وصلت أسماء أيضاً فى ذلك اليوم، فوقفت بين الناس بحيث لا يعرفها أحد ، فرأت أبا موسى وعمرا فى مجلس على دكة وبقية الناس فى جانب فرأت أولا أبا موسى فأصغى الناس لقوله فقال : «أيها الناس انظروا فى أمر هذه الأمة فقد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا» قال ذلك وتنحى . وكان لقوله وقع عظيم، ولبث الناس ينتظرون قول عمرو فإذا هو يقف ويقول : «إن هذا قد قال ما

سمعتموه وخلع صاحبه (عليا) وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه» ، فلما سمع أصحاب على قوله علموا أنه غدر من عمرو بن العاص فى غفلة من أبى موسى وأيقنوا بالفشل ، ووبخوا أبا موسى وأنبوه فقال : «ما العمل .. لقد غدر بى ؟» ، وأما أسماء فلما سمعت القولين علمت أن معاوية قد اشتد ساعده وأن رجال على لابد أن ينقسموا بين من يقبل بالحكم ومن لا يقبله ، فلم تستطع صبرا إلى البقاء هناك فخرجت من بين الجمع ومازالت سائرة والخادم معها حتى أتت إلى شجرة منفردة فى الصحراء ، فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت بنفسها . ولم تر لها عزاء إلا البكاء والنحيب .. حتى ألقت رأسها على حجر ونامت ولكنها لم تستغرق فى النوم ، فتراءى لها طيف محمد فأفاقت مذعورة وهى تقول : «أهلا بحبيبى » وفيما هى تخاطب نفسها لمحت الخادم عائدا بالجوادين وهو يسرع نحوها فقالت : «ما وراءك ؟ » ، قال : «التقيت وأنا أسرج الجوادين بجمع من رجال الشام ركبوا مسرعين ، وفيهم عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه وسمعت عمراً يقول: «لقد استقام الأمر لنا ولم يبق على إلا أن افتتح مصر لأعود إلى ولايتها ثم لا يبقى فى يد على إلا العراق والحجاز فنغزوها بجيش عرمرم ونفتحها» ، فلما سمعت ذكر مصر وفتحها اقشعر بدنها وتذكرت محمدا فيها فقالت فى نفسها : «بل أذهب إلى مصر الآن وأرى ما

يؤول إليه أمرها» . ثم التفتت إلى الخادم وقالت : «هل هم سائرون إلى مصر ؟» ، قال : «لا أدرى ولكن لابد لهم أن ينزلوا بالشام – أولاً – ليدبروا أمورهم ثم يتجهون إلى مصر» .

فعزمت على أن تقصد الكوفة سريعا ، ثم تعود إلى مصر بعد أن تخبر عليا بنجدة محمد . رأت أن تكتب إلى محمد لتخبره بعزمها وتنبئه بأحوالها فأبلغته بكل ما أصابها وختمت الخطاب بقولها: « واعلم أن كل ما قاسيته من الشقاء زال من ذاكرتى بمجرد الأمل بلقاء حبيبى ومنتهى أملى محمد .. وكنت قد عزمت على أن ألحق بك لو لم أكن فى شاغل على حال الخلافة وعلى مولاى الإمام على أمير المؤمنين .. فها أنا ذاهبة إلى الكوفة لعلى أستطيع خدمته ثم آتى إليك .. ويكفينى أن أراك وأسمع حديثك ، فإذا حمل عمرو بن العاص على مصر كما سمعت فنحارب سويا، فإما أن نعيش معا أو نموت معا والسلام» ، ولفت الكتاب ودفعته إلى الخادم وأوصته أن يسلمه إلى محمد بن أبى بكر فى مصر ، ويبقى هناك . فمضى الرسول وبقيت هى وحدها ، وبعد قليل استأجرت دليلا سار بها إلى الكوفة ، فوصلت إلى الكوفة بعد أيام، فلم تر عليا فسألت عنه فقيل لها إنه خرج لحرب الخوارج فى النهروان، فقالت : «ومن الخوارج ؟» قالوا : «هم الذين نقموا على على لأنه رضى بالتحكيم» .

وفى ذات يوم ، رأت فى الكوفة هرجا واضطرابا فقالت : « ما ذلك ؟ » . قالوا : «إن الأمر قد استقام فى الشام لمعاوية وقد أرسل إلى مصر من يفتحها ..» .

فأسرعت إلى جوادها فركبت لتلحق بمحمد فى مصر .

وكان معاوية قد دبر من الحيل ما أفسد بين محمد بن أبى بكر وعلى . وقد فسدت مصر على يد محمد فاستعان على بالأشتر لإصلاح ما حل بمصر وقال له: «ليس لها غيرك»، وبلغ ذلك معاوية وكان يطمع فى مصر لكثرة خيراتها ليستعين بها فى حروبه. وقد أدرك أن الأشتر أشد من محمد بن أبى بكر .

فدبر له كمينا حيث استقبله أحد رجاله واستضافه ودس له السم فى شرابه فمات .

وظلت مصر تحت ولاية محمد بن أبى بكر . وازداد طمع معاوية فى مصر، فاستشار عمراً فقال له : «إنى فاتحها الأول وليس هناك من أولى بها منى» وجند جيشا كبيرا وقصد به مصر .

فلما علم محمد بحملته بعث إلى الإمام يستنجد بعلى ، وعلمت أسماء بذلك فتوجهت إلى مصر وكان محمد لم ير أسماء منذ افترقا فى البصرة ، يوم خرج مع أخته أم المؤمنين إلى مكة ، وكان قد علم بما دار بينها وبين الإمام على على أثر موقعة الجمل وبشأن خطبتها للحسن .. أخبره بذلك الحسن نفسه وهو لايدرى أنه شرع فى خطبتها، وأخبره بأن والده جعل غموض نسبها مانعا من زواجه به، فسره ذلك وهو على يقين من بقاء أسماء على عهده .

ولم يتمكن من مكاتبتها ، ولكنه كان يسأل عنها ويستقى أخبارها.. فكان تارة يعرف مقرها وطورا لايعرفه، على أنه تذكر ما أشار إليه الإمام على من غموض نسبها حتى

جعله مانعا من الزواج بها ، فقال فى نفسه : «إذا عرفت والدها كان أمرها مشكلا ، لأن الحسن لايتخلى عنها .. وإذا أرادها الحسن وطلبها والده فكيف أطلبها أنا؟» فلما بدا له ذلك عظم عليه الأمر حتى ود ألا تعرف والدها فتكون أقرب إليه ولو فى غير زواج ومازال يردد هذه التصورات فى ذهنه حتى جاءه كتاب أسماء الأخير . وعلم بموت القس وضياع السر وما تشير إليه أسماء من رغبتها فى المعيشة معه كأخت ، فثبت له صدق مودتها وبقائها على العهد .. غير أن اشتغاله بمهام الحرب شغل كل ذهنه فبينما هو ذات يوم فى الفسطاط عاصمة الديار المصرية فى ذلك الحين ، جاءته أخبار بأن جيشا من أهل الشام بقيادة عمرو بن العاص يتقدم نحوه .. وكان عمرو قد أرسل خطابا إلى محمد يطلب إليه التسليم، فأرسل محمد الخطاب إلى على يستنجد به .

أما عمرو فإنه دخل مصر من الشرقية ، وجعل يسرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة .. ويفرقها حتى كاد الفشل يحيط بجنود الشام لو لم تأتهم نجدة بقيادة معاوية بن حديج ، أما جند مصر فلم تأتهم نجدة ولكنهم حاربوا حربا شديدة دافعوا فيها دفاع الأبطال .

وسارت أسماء من الكوفة ، وكانت قادمة وحدها على جوادها ، فاضطرها ذلك إلى المسير بجوار المدن استئناسا بالناس ومخافة العطش فى الصحراء ، والجواد لايصبر على العطش فسارت على ضفاف الفرات ، ثم تحولت إلى الشام حتى وصلت إلى دمشق ، فسمعت هناك بمسير حملة عمرو ..

فأخذت تبحث عن الغالب ، فعلمت أن عمرا بعث يستنجد بمعاوية وأن جيش مصر غالب .

فسرت ولم تمكث فى دمشق إلا ريثما استراحت وركبت تلتمس مصر .. ولما دنت من العريش قيل لها إنها على حدود مصر .. ولما دخلت مصر مرت أولا بالفرما وما إن وصلت إلى هناك ، حتى أخذت تسمع أخبار الحرب بين محمد وعمرو ، فأخبروها أن عمرا جاءته النجدة بعد أن كاد يفشل فتشدد ، وعلمت أنهم يطيعون عمراً وأنهم ميالون إلى معاوية ، فانقبضت نفسها وخرجت من الفرما تبحث عن مكان القتال فقالوا إنه فى ضواحى الفسطاط .. وهى فى كل سفرها لا تنام الليل إلا قليلا حتى وصلت بلبيس ، فرأت أهلها فى هرج ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده أو عصب رأسه فعلمت أنهم عائدون من قتال . فاضطربت حواسها وسألت عما كان ، فقالوا : «إن جنود الشام انضم إليهم أهل مصر وقد بايعوا معاوية» .

وقد كانت الموقعة فى أول من أمس ، وقد دخل عمرو الفسطاط .

فلم تستطع صبرا .. فركبت واتجهت نحو مكان الموقعة وعيناها ناظرتان إلى الأمام لا تبالى بما يهددها من الخطر وأسدل الليل نقابه فلم تعد تستطيع التطلع إلى بعيد ، وخافت أن تضل الطريق .. وقد تهيأت للدفاع بسلاحها إذا اعترضها أحد .. فما لبثت أن رأت الأفق ينير ثم أطل القمر وأضاء ، فتلقته بالترحاب وأحست عند رؤيته بانفراج الأزمة .. ولما طلع القمر اتجهت إلى الفسطاط .

وكانت حينما خرجت من بلبيس ترى بعض المارة قادمين إليها أفرادا وأزواجا ، ولكنها لم تكد تبعد عنها حتى خلت الطريق من الناس .

فظنت نفسها سائرة فى طريق لا تؤدى إلى الفسطاط ، فوقفت وتبينت أنها أخطأت الطريق ، والتفتت فلم تر أمامها إلا صحراء قاحلة ، فرجعت يمينا حتى أصبحت فى أرض زراعية .. وسارت نحو الجنوب والقمر يسارها يعلو حتى أصبح يريها الأشباح عن بعد ، ووادى النيل أرض منبسطة لا جبال فيها ولا أودية .

مضى الليل وهى ماضية فى سيرها حتى أصابها التعب والجوع وأحست بالبرد وهو شديد فى مصر بعد منتصف الليل .. فترجلت تلتمس الدفء وقادت جوادها وراءها ، والجو هادىء والأرض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر فرسها وصهيله .

وبينما هى تفكر فى حالها إذ سمعت جوادها يصهل فالتفت إلى ما استوقفه .. فرأت شبحا منطرحا على الأرض واشتمت رائحة النتن من الجثة ، فدنت من الشبح فإذا هو جثة قتيل ، وخفق قلبها وعلمت أنها على مقربة من مكان الموقعة ، فتشددت وتجلدت وقد شعرت منذ رأت تلك الجثة بارتعاش .. ومشت والجواد وراءها والروائح تتعاظم ، ثم رأت جوادها قد توقف ثانية عندما اقتربت من الجثث وأخذت النسور تحلق فى الجو ، فارتبكت فى أمرها وهى تود البحث بين تلك الجثث مخافة أن يكون محمد بينها

.. والجواد يمنعها بتوقفه وصهيله ، فعمدت إلى شجرة شدته إليها وعادت وقلبها يخفق وركبتاها ترتعدان وعيناها شاخصتان إلى تلك الساحة ، وفيها الجثث ملقاة .. وبين أولئك القتلى من استلقى على ظهره .

ورأت هناك رؤوسا مدحرجة وجثثا بلا رؤوس متراكمة فوق بعض .

وأرهب ما رأته رجلا وامرأة ماتا متعانقين ، وكانت تجر نفسها جرا بين تلك الجثث فأصابها الدوار وخافت أن تسقط فوق القتلى فتداركت نفسها واستندت إلى الشجرة التى شدت فرسها إليها ، وجلست هناك وأسندت رأسها إلى جذعها تلتمس الراحة .

ثم التفتت فرأت الفرس يمد رأسه إلى الأرض وقد التقط شيئا مضغه بين أسنانه فسمعت له صوتا كصوت القصبة إذا كسرت بين الأضراس فلمحت شيئا أبيض .. فتناولته فإذا هو قصبة فيها ورقة وهو كتابها إلى محمد – وتحققت أن محمدا فى تلك الموقعة وتلك القصبة معه ، فسقطت من جيبه أثناء الدفاع .. فأين هو ؟ .. فلما وجدت كتابها خشيت أن يكون محمد قد قتل هناك فعادت إلى الجثث تبحث فيها .

وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو ظهر كل شىء أمامها جليا واضحا ، وكان قلبها يخفق كلما رأت شبحا ومازالت على تلك الحال حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه ، فدارت بين القتلى تجدد البحث .. فلم تر أثرا لمحمد ، فتحققت أنه لم يقتل فى تلك المعركة .

فلما سكن روعها ، أحست بالتعب والنعاس والجوع فالتفت إلى ما حولها ، فرأت بيوتا تكاد تتوارى لبعدها ، فعلمت أنها منازل بعض أهل القرى فتحولت إليها تلتمس طعاما وعلفا لجوادها ، فوصلت إلى مكان وحيت أهله .

فرأت هناك امرأة معها صبيان عراه يحومون حولها ، وهى تحلب لبن نعجة .

فلما رأى الصبيان أسماء قادمة على فرسها صاحوا بأمهم ففزعت فتركوا الغنمة ودخلوا الكوخ .

فنادتهم أسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لهم : «أعندكم علف لهذا الجواد ؟» قالوا : «نعم» ، واعتذروا لخوفهم بأنهم قاسوا فى تلك الأثناء أهوالا من الجند المحاربين لأنهم كانوا ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم فأكرموا أسماء وجاءوها باللبن وللجواد بالعلف ، والتمست حصيرا تتكىء عليها فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشدها إلى وتد ، وجاء بحصير كان قد خبأه فى ظل الكوخ ، ونامت عميقا لم تفق إلا قبل الغروب ولم تفتح عينيها حتى رأت رسولها الأخير الذى أرسلته إلى محمد واقفا عند رأسها فصاحت فيه:

«أين كنت ؟.. ومن أين أتيت ؟ .. أين هو محمد ؟» .. فعض على شفتيه وأشار بعينيها يرجو سكوتها لئلا يسمعا أحد من أهل البيت .. فنهضت وسلمت الفرس إلى الرسول ومشت إلى جانبه وسألته عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذى جاء به إلى هذا المكان .

فقال : «أبشرى يامولاتى ، إن مولاى محمد قد نجا من هذه الموقعة» ، فقالت: «وأين هو ؟.. أخبرنى ؟» ، قال : «اعلمى ياسيدتى أنى ما فارقت سيدى محمدا يوما واحدا منذ جئته بكتابك ولما كانت الموقعة منذ يومين فى هذا السهل ، وقد قتل كنانة بن بشر قائد مقدمته ، تفرق رجاله حتى أصبح وحيدا ، فألححت عليه أن يخرج من المعركة خيرا من أن يقتل . وأما هو فقد كان عازما على البقاء فى ساحة القتال إلى الموت ، فألححت عليه فأطاعنى فمشينا حتى انتهينا إلى كهف ناحية الطريق بالقرب من هذا الجبل (وأشار إلى المقطم) فأوينا إليه خائفين . وقد مضى علينا هناك يومان بلا طعام ولا ماء .. فلما رأيت ظمأ سيدى أستأذنته فى الخروج لآتيه ببعض الماء والطعام» .

فبادرته قائلة : «وأين هو محمد الآن ؟ هلم بنا إليه ومعنا الماء» ، فقال : «إنه حيث قلت على مسافة قصيرة من هنا» ، قالت : «احمل له الطعام والماء وهلم بنا» ، قال : «ألا تخشين مخاطر الطريق» ، قالت : «لا ، وأرى أن نبقى الفرس هنا لئلا يدل علينا» ، فأخذ الرجل الفرس وعاد إلى الكوخ .. وبعد قليل رجع بقربة مملوءة بالماء ، وبأرغفة ، وشىء من الجبن .

مضيا وقد خيم الظلام والرجل يمشى أمامها يدلها على الطريق .

وقضت مسافة الطريق لا تتكلم لاضطراب خاطرها وقضيا ساعة سائرين والليل دامس ، لايكادان يميزان الطريق لو لم يكن جبل المقطم ظاهرا أمامهما فى الأفق .. فجعلاه وجهتهما لأن محمدا مختبىء بالقرب منه .

وكانا يمران تارة بين خيام وآونة بين أعشاش أو أكواخ صغيرة حتى وصلا إلى جبل المقطم ، فتقدم الرجل وسارت أسماء فى أثره، ومشى هو يلتمس الطريق بين أنقاض بعض الأخربة وهى تتبعه.

وكان قلبها يرقص فرحا كلما تصورت أنها تحمل الماء والطعام إلي محمد .

وبعد هنيهة اختفى الدليل فنادته بصوت منخفض، فقال : «إننا وصلنا» ، فدخلت فى أثره إلى بيت خرب لم يبق منه إلا الجدران وبعض السقف ، ولم تكد تدخل حتى سمعت الرجل يقول :

«أين أنت يامولاى ؟» ، فلم يجبه أحد فقالت أسماء : «لعله كان هنا وغادر المكان . فنفتش عنه فى غيره لعل الأماكن قد تشابهت عليك» ، وفتشا كل الأماكن المجاورة فلم يقفا له على أثر حتى تعبا وملا التفتيش ، فقال : «أخشى أن يكون عمرو قد عرف مكانه ، فبعث من قبض عليه وهو أعزل لا سلاح معه» ، فلما سمعت ذلك أقشعر بدنها وقالت: «وما العمل الآن ؟» ، قال : «إنى رهن إشارتك فيما تأمرين» ، قالت : «عد بنا إلى حيث كنا نلبث هناك حتى الصباح ثم نبدأ البحث عنه من جديد» ، قال : «حسنا» وعادا حتى وصلا إلى الكوخ وعرفاه من صوت الفرس .. وباتت أسماء عند تلك المرأة ، وبكر الرجل فى الصباح للبحث عن محمد ومكثت هناك فى انتظاره .

وأبطأ الرجل فى رجوعه فاضطربت أسماء ، وندمت لأنها لم تسر هى للبحث معه .

وأضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها .. فمشت بين تلك الأكواخ إلى الجهة التى تتوقع أن يكون رسولها قادما منها . وهى تتطلع على طول الطريق فرأت شبحا مسرعا نحوها عرفت أنه رسولها .. فاختلج قلبها وشخصت ببصرها لترى مايبدو منه فإذا هو مازال مسرعا حتى وصل إليها وهو يلهث من شدة التعب واحمرت عيناه وكلل العرق جبينه . فصاحت فيه : «ما وراءك ؟ .. قل .. ماخبرك ؟ هل وجدت محمدا ؟» .. قالت ذلك وقلبها يزداد خفقانه .. فقال وهو يلهث فى شدة : «آه يا مولاتى .. نعم وجدته ولكنه قد قتل» .

فصاحت : «وكيف ذلك ؟» ، قال : «إنهم عثروا على مكانه قبل وصولنا أمس .. وقد دلهم عليه الأعداء ، فحملوه وهو أعزل إلى الفسطاط ..» ، فقالت : «وماذا جرى بعد ذلك ؟» ، قال : «لما مضيت من عندك فى هذا الصباح قصدت الفسطاط رأسا فوصلت إلى الجامع وتظاهرت بالصلاة .. فرأيت عمرو بن العاص وعبدالرحمن بن أبى بكر أخا سيدى محمد . وسمعت عبدالرحمن يقول لعمرو : «أتقتل أخى ؟ ابعث إلى ابن حديج فانهه عنه» فعلمت أن معاوية بن حديج هو الذى قبض عليه ويريد قتله .. فطار صوابى ووددت أن أعرف أين هو ابن حديج لأسير إليه ، فسمعت عمرا يقول لبعض رجاله : «إذهبوا إلى ابن حديج .. أن يكف عن قتل محمد ويأتينى به» ، فخرجت فى أثر ذلك الرسول حتى وصلت إلى مكان الكهف والخيمة

رأيت فيه جمعا متكاتفا بينهم ابن حديج ومعه رجاله أحاطوا بمولاى محمد وقد رق جسمه من العطش والجوع .. وتقدم رسول عمرو إلى ابن حديج وأبلغه أمر عمرو فأجاب : «قتلتم كنانة بن بشر وأخلى أنا محمداً ..؟ هيهات .. هيات» .

فلما سمعت ذلك الكلام وحدقت ببصرها لترى ماتم بعد ذلك وهى تقول : «جزاهم الله شرا على هذا القول .. لا .. لا .. لا أظنه يقتله بغير أمر من عمرو» فقال الرجل : «ولو اقتصرت إساءته على ذلك لكان خيرا ، ولكنه منع عن سيدى الماء ، فقد سمعته بأذنى يطلب منهم أن يسقوه فقال له ابن حديج بوقاحة واستخفاف : «لا سقانى الله إن سقيتك قطرة أبدا ، إنكم منعتم عثمان من شرب الماء» .

فأجابه سيدى محمد : «يا ابن اليهودية ليس ذلك إليك ، إنما إلى الله يسقى أولياءه ويظمىء أعداءه ، أنت وأمثالك ، أما والله لو كان سيفى بيدى ما بلغتم منى هذا !» ، فلم تعد أسماء تستطيع صبرا على استماع الحديث وهى تود أن تعرف النتيجة عاجلا ، فقالت : «وماذا جرى أخيرا ؟» ، قال : «سمعت ابن حديج يقول له : «أتدرى ماذا سأصنع بك ؟ سأدخلك جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار» .

فصاحت أسماء والدمع يتساقط من عينيها وهى تتشدد وتتجلد: «خسىء ابن اليهودية إنه لايجسر على ذلك !» ، فقال الرجل : «لما سمعت قول ابن حديج أسرعت لأخبرك لأنى رأيت فى وجه القوم المباشرة إلى الشر» .

فالتفتت أسماء وراءها فرأت الكوخ بعيدا ، ولا سبيل لها إلى الرجوع ، ولم تستطع أن تمسك نفسها عن الإسراع إلى محمد فقالت : «وهل المكان بعيد عن هنا ؟» ، قال : «إنه قريب» ، فقالت : «هلم بنا إليه» .

فانطلقا حتي أشرفا على ساحة ، فقال الرجل : «كانوا فى هذه الساحة والظاهر أنهم ساروا إلى الفسطاط» . فمشت حتى بلغت المكان الذى كانوا فيه ، فرأت آثار دم .. وكأن شيئا جروه جرا ، فارتعدت فرائصها وجمد الدم فى عرقها وصاحت: «ويلاه إنهم قتلوه .. قتلوه .. آه يا محمد ، يا محمد ، ياحبيبى !» قال لها الرجل : «وكيف عرفت ذلك ؟» ، قالت: «أما ترى الدم وآثار جر الجثة ؟!» ، قالت ذلك ولطمت وجهها وانحدر الدمع على خديها ومشت تتبع آثار الجر وعيناها لاتريان الطريق لما يغشاهما من الدمع .. ولم تمش إلا قليلا حتى اشتمت رائحة شواء ، فمسحت عيناها وتطلعت فرأت دخانا يتصاعد من كهف ، فأيقنت أنهم قتلوه وأحرقوه فى جوف حمار كما قالوا .. فهرولت إلى الكهف لا تلوى على شىء .. فرأت هناك جثة حمار حولها النار موقدة وجوفها مشقوق فتفرست فى ذلك الشق فرأت من خلال اللهيب رأس محمد مغمض العينين كأنه فى سبات عميق فصاحت : «محمد ! يامحمد ! .. لقد حققوا قولهم وفعلوا ما أرادوا ، قتلوه .. قتلهم الله» ، وهمت أن تلقى بنفسها فى النار ، فأمسكها الرجل من ثوبها وتوسل إليها ألا تفعل .. فلطمت

وجهها وحلت شعرها وأخذت فى الندب والعويل وهى تمسح عينيها كل لحظة وتنظر حبيبها من خلال اللهيب فتراه لايزال نائما ، فتناديه فلا يجيب ، فتهم بأن تلقى نفسها والخادم يمسكها .

فضاقت بها الحيل .. فجعلت تدور حوله وتندبه بل تندب نفسها وتقول: «آه لتعاستى وشقائى .. آه يا حبيبى يا محمد ، إنك لم تلق حتفك إلا لنحس طالعى . لم تقتل أنت إنما قتلت ليكمل لى الشقاء .. بل كيف تموت بهذه الطريقة البشعة وأبقى حية ؟! كلا ثم كلا ..!» قالت ذلك وألقت بنفسها فى اللهب قبل أن يبادر الخادم إلى منعها فالتهبت شعرها ، ولكن الرجل أسرع إلى إطفائه بعد أن اشتعل معظمه ولفح وجهها ، وهى مازالت تحاول إلقاء نفسها فى اللهب وتقول : «أتركونى .. دعونى أنم مع حبيبى محمد .. دعونى أعانقه !» فأسندها الرجل وحملها إلى جانب ، فأجلسها على الأرض وقلبه يكاد يتفطر من شدة التأثر ، وخاطبها الرجل فلم تسمع .. ثم أفاقت من غفلتها فنظرت إلى اللهيب وقالت بصوت خافت : «لقد مات عطشا ، فكيف أشرب الماء بعده ؟ وقد مات جائعا ، فكيف آكل الطعام بعده ؟ .. أنت روح أسماء فكيف تعيش أسماء بلا روح ؟ أنت أمل أسماء ، فكيف تحيا أسماء بلا أمل .. آه ما أحلى الموت وما ألذه !» ، ثم وقفت بغتة والتفت إلى ما حولها كأنها استيقظت من نوم وسكتت هنيهة وهى مطرقة كأنها تفكر فى أمر ذى بال ، ثم قالت : «الآخرة ! نعم .. إن الآخرة خير من هذه الدنيا ، دنيا الشقاء

.. نلتقى هناك بعد الموت ، أجل نلتقى . لابد من عالم آخر نلتقى فيه لأن الله عادل . كيف يموت محمد وأبقى بعيدة عنه والموت أحسن وسيلة تجمعنى به ؟! دعونى أحترق بناره فيختلط رمادى برماده ، ويتحد فؤادى بفؤاده .. الموت .. الموت !» ، تقدمت إلى تلك النار الملتهبة فنظرت إلى وسطها لعلها ترى رأس محمد ثانية فإذا هو قد اسود ولم يعد يتميز عن سائر أجزاء الحريق ، فصاحت : «محمد .. محمد .. محمد .. الوداع .. الوداع ! .. لا بل اللقاء .. اللقاء ! .. كيف أودعك ونحن ذاهبان معا .. اللقاء .. اللقاء !» ، قالت ذلك وألقت بنفسها فى اللهيب كأنها تعانق محمدا فأسرع الخادم إلى انتشالها فإذا هى تختلج اختلاج الموت وكان اللهيب قد خنقها .

فبكى الخادم بكاء مرا وصبر حتى خمدت النار فجمع رفات الحبيبين وضمهما إلى مدفن واحد وترحم عليهما .


خريطة
للمعارك التي حدثت بعد أحداث الفتنة الكبرى ومقتل عثمان بن عفان
موقعة الجمل
موقعة صفين
موقعة النهروان
في المدينة المنورة كان مقتل عثمان بن عفان
بحر الخزر
أربيل
تبريز
النهروان
(موقعة النهروان مع الخوارج)
نهر دجلة
سامراء
إنطاكية
قبرص
صفين
(موقعة صفين)
بحر الروم
(الأبيض المتوسط)
دمشق
نهر الفرات
القدس
الأسكندرية
الكوفة
شيراز
البصرة
(موقعة الجمل)
الفسطاط
دومة الجندل
الخليج العربي
البحر الأحمر (القلزم)
المدينة المنورة
(يثرب)
أسوان

هذه الطبعة من سلسلة روايات الهلال للأولاد والبنات
تصدرها دار الهلال
بالاشتراك مع المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة